اقرأ

سيد حنفي

الفروسية العربية

في العصر الجاهلي



دار المعارف بمصر

الفروسية العربية
في العصر الجاهلي

سيد حنفي

الفروسية العربية

في العصر الجاهلي

اقرأ ٢١١

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢١١ – يولية سنة ١٩٦٠

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ٥ شارع ماسبيرو – القاهرة

مقدمة

فوق رمال الصحراء الشاحبة ، وتحت أشعة الشمس اللاهبة وبين تلك المراعى البائسة المتناثرة عاش أفراد شعب كأنهم جذوع نخل سامقة ، فيهم صلابة ومضاء ، وحدة وذكاء . قد هدتهم الفطرة للون من الحياة ، ثم دفعتهم ظروفهم وظروف بيئتهم لتشكيل هذه الحياة . فتكونت لهم مثل فيها بداوة وفطرة ، وتميزت لهم أخلاق فيها بأس وشدة . ذلك الشعب هو الشعب العربى فى شبه جزيرته التى كانت تحيط بها حضارة الفرس والروم فى الشمال وحضارة اليمن والأحباش فى الجنوب .

ولم يعش هذا الشعب منعزلاً عن الأجناس التى كانت تحف به ، فقد كان جواباً لصحرائه ، متنقلاً فى مراعيه ، إما ساعياً وراء ماء أو كلأ ، أو متاجراً فى أمواله وأنعامه ، أو ناقلا تجارة الجنوب إلى الشمال أو تجارة الشمال إلى الجنوب .

وأثر هذا كله فى فروسية الجاهليين . وسجل الرواة فى لقرنين الأول والثانى الهجريين فى عصر التدوين أخبار هذه

الفروسية ومظاهرها وخاصة فى كتب الحماسة وشعر الحرب .

وكعادة هؤلاء المدونين دائماً، ولأنهم يسجلون أخبار هذه الفترة عن رواة يروونها شفاهاً، شاب أخبار الفرسان كثير من الأساطير والمبالغات وأضيف إليهم كثير من الشعر المنتحل .

وقد حاولت فى هذا الكتيب أن أعرض لنظرية الفروسية الجاهلية عرضاً سريعاً دون مناقشة أو تحليل لتفاصيل قد تكسبه جفافاً لا يتطلبه هذا الكتيب ، فعرضت للعوامل التى ساعدت أو أثرت فى نشأة الفروسية ، ثم تحدثت عن خطة الحرب عند الجاهليين وقارنتها بخطة الحرب عند الفرس والروم . وانتقلت إلى الحديث عن الفارس : عن سلاحه وجواده ثم عن أخلاقه ومثله ، وانتهيت إلى تصوير موقفه من المجتمع الجاهلى وموقف هذا المجتمع منه .

وجعلنى هذا الحديث أذكر نماذج ثلاثة من الفرسان : الفارس السيد والفارس الصعلوك والفارس العبد . وأوضحت أن كل نموذج منهم كان يرتبط بمجتمعه ارتباطاً يخالف فيه ارتباط صاحبيه ، كما أن كلا منهم تشابه مع صاحبيه فى جانب من مثله واختلف عنه فى جانب آخر . وقد كتبت ترجمة لكل نموذج من النماذج الثلاثة . فمثل عمرو بن معد يكرب نموذج

الفارس السيد ومثّل عروة بن الورد نموذج الفارس الصعلوك ، ومثّل عنترة بن شداد نموذج الفارس العبد . وأخيراً ذكرت أخبار بعض الفرسان وهم ربيعة بن مكدم وزيد الخيل ثم الشنفرى . وكان هدفى من ذكر هذه الأمثلة أن يلمس القارئ النماذج التى تحدثت عنها نظرياً لمساً حسياً ، فيثبت فى نفسه ما أردت أن أصوره فى هذا الكتيب .

وبعد . . . فإن من يتابع دراسة تطور الفروسية الجاهلية على مدى العصور الإسلامية يرى كيف امتزجت هذه الفروسية بفروسية الترك والفرس وكيف تغلغلت فى مناطق الشرق الأقصى حتى دخلت الهند وغربى الصين وجنوبى روسيا . ومن يتابع هذا الامتزاج أيضاً فى الغرب فى شمالى أفريقيا وفى أسبانيا وجنوبى فرنسا يدرك كيف كانت هذه الفروسية طابع الشرق الحربى وكيف أفادت فروسية القرون الوسطى من هذه الفروسية العربية ، بل إن التقاء هاتين الفروسيتين : العربية والأوروبية فى الحروب الصليبية ليصور أعظم تصوير خصائص كل من الفروسيتين وكيف أثرت الفروسية العربية فى الفروسية الأوروبية ومدى فضلها عليها واستمدادها منها .

وقد أطلت الوقوف فى هذا الكتيب عند فروسية الجاهليين

لأنني أعتقد أن إدراكنا لطبيعة هذه الفروسية أساس مهم لفهم الفروسية العربية بعد ذلك على توالى العصور .

والله ولى التوفيق .

سيد حنفى

١

لا شك أننا لو بحثنا العوامل التى دعت إلى ظهور الفروسية عند العرب الجاهليين ، لوجدناها فى بيئتهم وفى تكوينهم الاجتماعى والجسمى والنفسى إذ أن ظاهرة الفروسية مظهر من مظاهر الفتوة الجاهلية ، فهى إذن ظاهرة اجتماعية دعت إليها الحياة التى يحيونها ، والإقليم الذى ينزلونه .

وقد عرفت خصائص الجزيرة الجغرافية منذ الزمن القديم ، وتحدث عنها الدارسون حديثاً مستفيضاً . وأهم ما يعنينا من هذه الدراسات أن الحياة فى هذه الصحراء لم تكن كالحياة التى يعيشها سكان الأقاليم الشمالية كإقليمى العراق والشام حيث الأمن مستتب تحت ظلال الفرس والروم ، والأرض خصبة تغل لأهلها الخير والحياة السهلة الآمنة برغم قسوة الفرس وظلم الرومان ، فتكونت الأسرة الصغيرة مسالمة مستكينة ، توفر لها الجيوش المنظمة حاجتها إلى الأمن والسلام .

أما الجزيرة . . . فقد فرضت الصحراء على أهلها نوعاً من

الحياة يتناسب مع طبيعتها القاسية ، وأجوائها المتقلبة ، بل إنه صبغت سكانها صبغة خاصة تختلف اختلافاً كبيراً عن صبغة من يسكنون الوديان الخصبة المثمرة ، أو من يعيشون فى أجواء لطيفة معتدلة .

ويتضح تأثير الصحراء فى ناحيتين : فى التكوين الاجتماعى لمجموع السكان ثم فى التكوين الجسمى والنفسى للأفراد . فقد فرضت الصحراء النظام القبلى كتنظيم اجتماعى لسكانها وهو نظام أملته ضرورة اجتماعية فرضتها الصحراء لاتساعها وشظف الحياة فيها ، ثم صعوبة مواصلاتها وضرورة انتقال الأفراد والعشائر من مكان إلى مكان طلباً للماء أو سعياً وراء الكلأ ، كذلك رغبة فى الأمن والحماية حتى إنه لا يمكن للبدوى أن يعيش خارج نطاق هذا التنظيم ، فالخليع الذى تلفظه القبيلة قد أعدم اجتماعيًّا إلا إذا وجد قبيلة أخرى تضمه إليها وتفرض عليه حمايتها .

ولا يسرى النظام القبلى فحسب على سكان البوادى ، وإنما يفرض نفسه أيضاً على سكان المدن القليلة المتناثرة فى الصحراء ، فكل مدينة تنقسم فى داخلها إلى مناطق ، كل منطقة تسكنها قبيلة من القبائل النازلة فيها ، وتعيش القبيلة فى داخل المدينة وكأنها

نعيش فى بادية ، فكل مظاهر القبلية من منازعات وأحلاف ، وخلع وجوار يتحقق فى المدينة كما يتحقق فى البادية .

وكما كان النظام الإقطاعى فى أوروبا فى العصور الوسطى عاملا من عوامل ظهور الفرسان كذلك كان النظام القبلى عاملا من عوامل ظهور الفروسية الجاهلية ، فكما يحكم المقاطعة حاكم أو أمير يدير شئونها وينظم أحوال ساداتها وعبيدها وقد يكون ولاؤه لحاكم أكثر منه قوة يمده بالعون الأدبى والمادى فى وقت الحاجة أو أثناء وقوع أزمة — كذلك يصرف شيخ القبيلة أمور قبيلته ، وينطوى تحت لواء قبيلة أخرى أكثر عدداً وأقوى عدة حتى يأمن الغارات ، ويستنصرها فى الملمات ، وكثيراً ما كانت تخرج القبيلة عن ولائها لحاميتها لتدخل فى ولاء قبيلة أخرى أعظم قوة وأوفر أموالاً .

فالنظام القبلى إذن هو الذى أوجد نظام الفرسان الذين يمثلون الجيش فى الدولة ، ولو كان العرب فى صحرائهم أمة واحدة لكان الجيش جيشاً واحداً يفرض حمايته على الجميع ويشيع الأمن بين الناس ، وهذا لن يدع فرصة لروح الفردية أن تظهر أو يسمح لفارس أن يخرج عن خطة الجيش ليبرز ، إذ أن قيمة التنظيم العسكرى فيما يقوم به المجموع لا فيما يقوم به الفرد ،

أما وقد كان العرب فى صحرائهم قبائل كثيرة متفرقة فقد تعددت الجيوش وكان كل جيش قائماً بنفسه ، وكل فرد يهتم بإظهار بطولته وتمجيد فروسيته ، لا يخضع لتنظيم حتى تصبح ضربته ضربة للقبيلة كلها ، ولا يرضى بقيادة حتى يوجه مع المقاتلين نحو الهدف الأول وهو هزيمة الأعداء . لذلك أصبح انتصار القبيلة يتوقف على تصرف الأفراد وقدرتهم فى القتال لا على التنظيم العسكرى لمجموع المحاربين مما قوى روح الفردية ، وجعل الفرصة مواتية للأفراد لإظهار شجاعتهم وإبراز فروسيتهم . وكم كانت نشوة الحرب تبلغ بالفارس حين يناديه الأبطال ليبرز إليهم يصاولهم ويصاولونه ، ويصارعهم ويصارعونه ، وكأن المعركة معركته الخاصة وليست معركة القبيلة كلها . يقول عنترة وقد بلغت به نشوة القتال مبلغها :

يدعون عنتر والرماحُ كأنها ... أشطانُ بئرٍ فى لبانِ الأدهمِ

ويقول

ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها ... قبلُ الفوارس : ويكَ عنتر أقدمِ

فالمعركة إذن معركة أفراد ، والفرد فى يده النصر كما فى يده الهزيمة ، وغالباً ما ينتظر الجيشان نتيجة هذا الصراع الفردى ، ثم يحمل كل جيش على الآخر ، ولما كان فى هذه المبارزات

الفردية مصير المعركة نجد القبائل تدفع بأشهر فرسانها فى أول القتال حتى تضمن الغلبة .

والواقع أن الفارس هنا كان يمثل القبيلة ولم تكن القبيلة تمثله إلا فى نطاق انتسابه إليها ، فليس غريباً إذن أن يشيد بنفسه لأن فى هذا تمجيد للقبيلة ، وأن يظهر قدرته لأن فى هذا قوة لها .

فطبيعة تكوين المجتمع الجاهلى وانقسامه إلى قبائل متفرقة من أهم العوامل التى أتاحت للفروسية العربية أن تظهر كما كانت تلك الظاهرة نفسها وهى انقسام أوروبا إلى مقاطعات صغيرة متحاربة هى التى أتاحت للفروسية أن تظهر عندهم .

* * *

وعامل اجتماعى آخر لعب دوراً هاماً فى توجيه الفروسية العربية ، وفى بناء الفارس الجاهلى وذلك هو العصبية الجاهلية التى سببت كثيراً من الحروب التى وقعت بين القبائل ، ونظرة واحدة إلى أيام العرب فى الجاهلية توضح إلى أى مدى كانت القبيلة فى حاجة إلى فرسان مدربين لهم نفسية خاصة وتكوين جسمى معين .

وتنقسم أيام العرب حسب تكوينهم القبلى إلى مجموعات :

١ — أيام القحطانية (عرب الجنوب) فيما بينهم ، وأشهرها :

أيام البردان والكلاب الأول واليحاميم ثم حروب الأوس والخزرج

٢ ـ أيام العدنانية (عرب الشمال) فيما بينهم ، وأشهرها :

أيام ربيعة فيما بينها وأهمها حرب البسوس ، وأيام ربيعة وتميم ، وأيام قيس فيما بينها وأهمها يوم داحس والغبراء ، وأيام قيس وكنانة وأهمها حروب الفجار ، وأيام قيس وتميم ، وأيام ضبة .

٣ ـ أيام بين القحطانية والعدنانية وأشهرها :

أيام طخفة وأوارة الأول والثانى وخزاز والكلاب الثانى .

٤ ـ أيام بين العرب وبين الفرس أو الروم أو الأحباش ، وأشهرها :

يوم الصفقة ويوم ذى قار بين العرب والفرس .

ولم تكن هذه الحروب أو الأيام قتالا فاصلا بمعنى أن جيوشاً تلتقى وتقرر مصير المعركة ، برغم أن العرب كانوا فى جاهليتهم أهل حروب كثيرة غير أنها لم تكن حروباً منظمة وإنما كانت تلتقى فيها القبائل المتحاربة ساعات من النهار ثم يقف القتال إذا ما حل الليل ، وربما انقضت الحرب بعد ذلك أو استؤنفت فى اليوم التالى . وكان الكثير من هذه الأيام غارات تفاجئ بها القبيلة الأخرى فى غيبة من رجالها الذين يكونون قد خرجوا لأمر

من أمورهم ، وسرعان ما ينسحبون وقد سبوا النساء وسلبوا الأموال.

ولو حاولنا أن نحصى أسباب هذه الحروب لوجدناها لا تخرج عن رغبة فى سلب الأموال وسبى النساء ، أو مزاحمة على الماء والكلأ ، هذا إلى جانب أسباب أخرى تدعو إليها عنجهية البدوى ، وتمس صميم كرامته وقد تضرب على أهم وتر فى حياة الجاهليين وهو تمرد فردياتهم ضد فردية الآخرين مثل حرب البسوس التى وقعت من أجل ناقة وكان الدافع إليها الحفاظ على الجوار . أو حرب داحس والغبراء التى أفضى إليها التنافس فى الرهان بين سيدى قبيلتين عظيمتين . وقليلا ما كانت تقع الحرب لدفع عدو غريب كيوم ذى قار بين الفرس وبنى بكر وفيه انتصر العرب على الفرس انتصاراً ساحقاً ، أو حروب اليمن والأحباش التى انتهى بعضها باحتلال الأحباش لليمن ، وذلك لأن العرب فى داخل جزيرتهم كانوا فى حماية الصحراء ، ولم يكن اختراقها أمراً سهلاً بالنسبة لجيوش ذلك العصر ، ولهذا فإن مثل هذه الحروب لم تكن تقع إلا فى الأطراف الشمالية أو الجنوبية للجزيرة حيث يتاخم العرب الأجناس والدول الغريبة عنهم كالفرس والروم والأحباش .

كذلك كان يحدث أن يقاتل العرب فى صفوف الفرس أو

الروم أعداء هاتين الدولتين سواء أكان الأعداء عرباً أم غير عرب وذلك نتيجة للسياسة التى سارت عليها هاتان الدولتان فى حماية حدودهما الجنوبية بإقامة إمارتى الحيرة وغسان وكان يحكمهما ملوك من العرب يخضعون لسلطانهما ويحاربون فى سبيلهما .

كانت معظم حروبهم إذن داخلية قبلية ، وربما اشتركت فيها عدة قبائل متحالفة ليس لها مصلحة فى القتال إلا محالفة قبيلة تريد الحرب لرفع ظلم أو رَدّ غَبن أو لسلب مال ونهب عير . ولم تكن هذه الحروب والغزوات تفجع البدو بكثير من القتلى إذ كانت الخطة المتبعة هى خطة حرب العصابات الحديثة فى معظم الأحوال وهى تلك التى تقول « اضرب واهرب » فقد كانت معظم غزوات الجاهليين قائمة على النهب والفرار بالغنيمة . ويقول بعض الباحثين إن البدوى كان يتحامى القتل جهده لأن تقاليدهم تقضى بأخذ الثأر أو الدّيات الباهظة ، وربما لا تغسل الديات الأحقاد لما فى قبولها وترك الدم من غضاضة ، ثم لاعتقادهم أنه إذا قتل الرجل ولم يدرك بثأره خرج من رأسه طائر يشبه البوم يسمونه الهامة أو الصدى ، فلا يزال يصيح : « اسقونى !

اسقونى ! » حتى يقتل القاتل أو أحد أقاربه . يقول ذو الإصبع العدوانى

ياعمرو إلا تدَعْ شتمي ومنقصتي   أضربك حتى تقول الهامةُ اسقونى

وربما كان هذا الرأى تفسيراً بسيطاً لظاهر الأمر ، ولكن إذا كنا قد فهمنا إلى أى مدى كان الجاهلى يشعر بذاته ويهتم بها ، ولم تكن هناك عقيدة دينية أو مبدأ دنيوى يدفعانه إلى أن يضحى بهذه الذات فى سبيل نصرة عقيدة كما حدث فى الإسلام ، أو نصرة مبدأ كما يحدث فى الدفاع عن النظريات السياسية والاقتصادية . . . إذا كنا قد فهمنا هذا فإننا نستطيع أن نعرف السبب الحقيقى فى حرص المقاتل الجاهلى على حياته ، وليس معنى هذا أن أنانية الجاهلى منعته من الدفاع عن قبيلته أو أورثته الجبن والخور ، فالحروب الجاهلية تثبت عكس ذلك ، فقد كان المقاتل مستعداً لأن يضحى بنفسه فى سبيل الدفاع عن شرف القبيلة وكرامة العشيرة وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بشرف المرأة التى فى عصمته ، أو تلك التى تمثل شرف القبيلة وكرامة من يمثلونها كما حدث فى يوم البردان عند ما أسر زياد بن الهبولة هند بنت ظالم زوج حجر بن عمرو بن معاوية الكندى .

* * *

سبب آخر دعا إلى ظهور الفروسية الجاهلية وهو طبيعة الصحراء والأخطار التى كان يتعرض لها الجاهلى فى حياته اليومية وربما كان لفظ الأخطار لفظاً عامًّا يشمل كل مسببات الحروب التى وقعت فى العصر الجاهلى . ولكننى أعنى هنا نوعين من الأخطار فرضتهما حياة الصحراء ، أخطار أسبابها اقتصادية وأخرى أسبابها اجتماعية ؛ ويتمثل النوع الأول فيما يعتور الجزيرة من قحط يدهمها بين حين وحين ، وجدب يقتل حيواناتها بين فترة وأخرى ، فكان على أفراد القبيلة أن يقاوموا هذا القحط وأن يدفعوا ذلك الجدب ، وهنا كان الصراع المرير يبلغ أشده بين القبائل على مواطن الكلأ والماء مما كان يتيح للفرسان أن يظهروا بطولتهم فى الدفاع عن هذه المواطن أو الإغارة عليها حفظاً لحياتهم وحيوات قبائلهم وأنعامهم ، وربما اشتد القحط واكتظت بعض المناطق بساكنيها فلا يبقى هناك مفر من الهجرة ، فتخرج القبائل نازحة إلى مناطق أخرى تنزل فيها ، وربما نزلت على قبائل مقيمة فى تلك المناطق فينشب صراع هائل فى سبيل العيش قد ينتهى بانتصار المهاجر واستكانة النازل وبقائهما معاً فى هذا الموطن كما حدث عند ما نزل الأوس والخزرج فى ظاهر المدينة وتغلبوا على قبائل اليهود فيما بعد وجاوروهم ، أو هزيمة

المهاجر أو النازل فينزح المنهزم إلى مكان آخر يجد فيه المأوى والمرعى كما حدث لبعض قبائل عمرو بن عامر بعد أن هاجرت إلى الشمال بسبب اشتداد القحط بعد انهيار سد مأرب ، وتفرق القبائل القحطانية وسط الجزيرة وشماليها . وكان الفرسان هم عماد هذه الهجرات ووقود تلك الحروب .

كذلك كانت القوافل التجارية تقطع الصحراء شمالاً وجنوباً محملة بتجارة الشرق ، ولم تكن الطريق مأمونة لها أو ذلولة لسالكيها ، فظهرت طائفة من الفرسان تحمى القوافل وتؤمن الطريق وتأخذ الأجر على ذلك ، وبرغم هذا لم تكن القوافل تسلم من الغارات عليها ، وقطع الطريق على أصحابها ، فنشبت الحروب بين حماتها وبين المغيرين عليها كما حدث يوم الصفقة فقد بعث كسرى أنوشروان إلى عامله باليمن عيراً تحمل نبعاً وهو شجر ينبت فى قمم الجبال كانت تصنع منه القسى والسهام . وكان جنود كسرى يخفرون القافلة من المدائن العاصمة حتى تصل إلى النعمان بالحيرة فيبعث معها النعمان بفرسان من بنى ربيعة يخفرونها حتى تدفع إلى هوذة بن على الحنفى فيخفرها حتى يخرجها من أرض بنى حنيفة ثم تدفع إلى تميم ويجعل لهم أجر فتسير فى حراسة فرسان بنى تميم حتى تبلغ اليمن وتسلم إلى عمال

كسرى هناك . ولما بعث كسرى بالعير ووصلت إلى اليمامة قال هوذة بن على لحراسها من الفرس : انظروا الذى تجعلونه لبنى تميم فأعطونيه وأنا أكفيكم أمرهم وأسير بها حتى تبلغوا مأمنكم . فلما بلغ بنى تميم ما صنع هوذة بن على ساروا إليهم وأخذوا ما كان بالقافلة فاقتسموه وقتلوا حماتها وأسروا هوذة بن على فافتدى منهم نفسه بثلاثمائة بعير . واستطاع كسرى أن ينتقم من بنى تميم بسبب ذلك .

فواضح هنا أن طبقة من الفرسان العرب كانت تأخذ جعلا من المال مقابل حراستها للقوافل التجارية وخاصة عند ما كانت تمر بأراضى قبائلها .

أما النوع الآخر من الأخطار فكان يتمثل فى نشوء طبقة من الفرسان الفقراء لهم تقاليدهم الخاصة وحياتهم المتميزة ، ربضوا فى بطن الصحراء يقطعون السبيل ويغيرون على القوافل ويتقاسمون الغنيمة ، ويتعاونون فى دفع المكروه عن أنفسهم وتلك الطبقة هى « صعاليك العرب » .

والصعاليك نفر من العرب فقراء جياع ، منبوذون من مجتمعهم ، مخلوعون من قبائلهم ، محتقرون من عشائرهم ، وقد كان قيس بن الحدادية يرى أنه لا يساوى عند قومه « عنزاً

جرباء جذماء» ؛ وفى أخبار الشنفرى أن قومه قتلوا رجلا فى خفرة بعض الفهميين فرهنوهم الشنفرى وأمه وأخاه وأسلموهم ولم يفدوهم . والمتأمل فى أخبار الصعاليك وأشعارهم يجد أنهم يشعرون شعوراً أليماً بفقرهم ويحسون إحساساً مريراً بهوان منزلتهم الاجتماعية وعدم تقدير المجتمع لهم ، لا لأنهم عاجزون وإنما لأن مجتمعهم ظلمهم وحرمهم العدالة الاجتماعية التى يتوقون إليها ، وحرمهم الوسائل المشروعة التى تسمح لهم بمواجهة الحياة كما يواجهها غيرهم . لذلك لم يجدوا أمامهم إلا أمرين : إما أن يقبلوا على هذه الحياة الذليلة وإما أن يشقوا طريقهم بالقوة نحو حياة كريمة يفرضون فيها أنفسهم وينزعون لقمة العيش من أيدى من حرمهم إياها ، دون أن يبالوا بالوسيلة التى يتخذونها سواء كانت مشروعة أو غير مشروعة . فلا الموت يمنعهم ولا القتل فى ميادين القتال يصدهم . وقد سلك معظم الصعاليك السبيل الثانى يقول عروة :

إذا المرء لم يبعث سواماً ولم يُرَحْ   عليه ولم تعطف عليه أقاربه
فللموت خير للفتى من حياته   فقيراً ومن مولى تدبُّ عقاربه

ويقول

فقلت له :

ألا احْىَ وأنت حُرٌّ ستشبع من حياتك أو تموت

ويتضح مدى استهانة هؤلاء الناس بالحياة في قول عروة أيضاً :

أرى أم حسان الغداة تلومنى تخوفنى الأعداء والنفس أخوف

لعل الذى خوفتنا من أمامنا يصادفه فى أهله المتخلف

ويقول تأبط شراً :

لو كنت فى ريمان تحرس بابه أراجيل أحبوش وأغضف آلف

إذن لأتتنى حيث كنت منيتى يخب بها هادٍ بأمرى قائف

إذن فهؤلاء الناس لا يثنيهم عن تحقيق أهدافهم شيء ولو كان الموت نفسه لأنهم يعلمون أن الموت لا مفر منه وسوف يلقاه كل فرد سواء أكان جباناً متخوفاً أم شجاعاً متهوراً لذلك اتسمت فروسيتهم بطابع المغامرة والجرأة الخارقة فخافهم العرب حتى إننا نجد فارساً من العرب المعدودين وهو عمرو بن معد يكرب يصرح بأنه لا يخشى أحداً من فرسان العرب إلا أربعة أحدهم السليك ابن السلكة الصعلوك. يقول : « لو سرت بظيعنة وحدى على مياه معد كلها ما خفت أن أغلب عليها ما لم يلقنى حراها أو عبداها ، فأما الحران فعامر بن الطفيل وعتيبة بن الحارث بن شهاب ، أما العبدان فأسود بنى عبس (يعنى عنترة) والسليك بن السلكة ،

وكلهم قد لقيت ، فأما عامر بن الطفيل فسريع الطعن على الصوت ، وأما عتيبة فأول الخيل إذا أغارت وآخرها إذا آبت ، وأما عنترة فقليل الكبوة شديد الجلب وأما السليك فبعيد الغارة كالليث الضارى .

وعرف الصعاليك بالشجاعة الفائقة حتى لقد ضربت بشجاعتهم الأمثال ، فمن حديث لرسول المهلب يصف فيه للحجاج ابن يوسف الثقفى قتاله الخوارج :

« كان يقاتلهم بجنده مقاتلة الصعلوك » . وكان الصعاليك يأنفون من الأعمال التى يقوم بها العبيد كما يأنف السادة من رعى للإبل وخدمة للأحرار ، يقول تأبط شرًّا :

ولست براعٍ ثلة قام وسطها طويل العصا غُرنيق ضحلٍ مرسل

تلك إذن هى طبقة فرسان الصعاليك وهى طبقة سببتها ظروف اجتماعية واقتصادية ، وهم يختلفون عن الفرسان السادة الذين تفخر بهم القبائل إذ أنهم قوم دفعهم وضعهم الاجتماعى والاقتصادى إلى نوع من الفروسية تنبع مبادئها من طبيعتهم ومن ظروفهم ، وهى فروسية تختلف فى بعض مظاهرها عن فروسية السادة . ونلاحظ هذا الاختلاف عند ما يرسم تأبط شرًّا صورة الفارس الصعلوك فيقول :

قليل التشكي للمهم يصيبه
كثير الهوى شتّى النوى والمسالك
يظل بموماة ويمسى بغيرهـــا
جحيشاً ويعروري ظهور المهالك
ويسبق وفد الريح من حيث ينتمى
بمنخرق من شـــدة المتدارك
إذا خاط عينيه كرى النوم لم يزل
له كالئ من قلب شيحان فاتك
إذا طلعت أولى العدىّ فنَفَرُه
إلى سلة من صارم الغرب باتك
إذا هزّه فى عظم قِرن تهللتْ
نواجذ أفواه المنايا الضواحك
يرى الوحشة الأنْسَ الأنيس ويهتدى
بحيث اهتدتْ أم النجوم الشوابك

فهو يقول إن الفارس الصعلوك صبور على الهموم كثير المسالك مختلف الهوى ، وهو يقطع الصحراء وحيداً راكباً ظهور المهالك ، وهو سريع العدو فحيثما اتجه فى سيره سبق الريح بخفته ، وهو ينام نوماً خفيفاً ، لا يغط فيه أو يستغرق ، وهو

شجاع فاتك يفزع إلى سيفه إذا طلعت إليه مقدمات الجيوش ، وهذا السيف متى حركه فى وجه قرن ضحك الموت لعلمه أنه ظافر به ، وهذا الفارس أنسه فى الوحشة والتفرد ، وهو يعلم طرق الصحراء ويسير فيها دون دليل يهتدى كما تهتدى الشمس فى حركتها اليومية .

هذه صورة الفارس الصعلوك وهى تختلف عن صورة الفارس السيد الذى يمثلها مثلاً عمرو بن كلثوم حين يقول :

أبا هند فلا تعجل علينــا وأنظرنــا نخبرك اليقينــا
بأنــا نورد الرايات بيضًا ونصدرهن حمرًا قد روينا
وأيام لنــا غرّ طــوال عصينا الملك فيها أن ندينــا
وسيد معشر قــد توجوه بتاج الملك يحمى المحجرينا
تركنا الخيل عاكفة عليه مقلــدة أعنتهــا صفونــا
وأنزلنا البيوت بذى طلوح إلى الشامات تنفى الموعدينا
وقد هرت كلاب الحى منا وشذ بنا قتادة من يلينــا
متى ننقل إلى قوم رحانا يكونوا فى اللقاء لها طحينا
يكون ثفالهــا شرقى نجــد ولهوتها قضاعــة أجمعينا

ويستمر فى هذا الفخر وهذا الإحساس بالسيادة والسلطان إلى أن يقول :

ورثنا المجد قد علمت معد ... نطاعن دونه حتى يبينـــا
ونحن إذا عماد الحى خرت ... على الأحفاض نمنع من يلينا
نجذ رءوسهم فى غير بر ... فما يدرون ماذا يتقونـــا

هذا وسوف نترجم لفارسين يمثلان الطبقتين .

* * *

وكان نتيجة لتلك الأخطار الطبيعية التى يجابهها الجاهلى فى صحرائه من مقابلة للوحش أو منازلة لقطاع الطرق أن اتجه تفكيره نحو اتخاذ وسيلة سريعة يستطيع بها الهرب من مثل هذه الأخطار التى لا يستطيع أن يدافع عن نفسه ضدها فكانت الناقة وكانت الفرس هما الوسيلتان السريعتان اللتان ينقذانه من هذه المآزق وإن كانت الفرس أفضل من الناقة فى هذه الناحية . وقد لاحظ بعض الباحثين أن العرب عرفوا الفرس فى صحراء نجد وقلت معرفتهم بها فى اليمن ويرجع ذلك إلى أن طبيعة الأخطار التى يمكن أن يقابلها العربى فى وهاد نجد تختلف عن تلك التى يمكن أن يقابلها العربى فى اليمن ، لذلك عنى أهل الصحراء بالفرس فكرموها وبالغوا فى رعايتها ، وحفظوا أنسابها فكانت وسيلتهم فى الهروب من مواطن الخطر كما كانت وسيلتهم فى مواجهتها.

فوجود الفرس فى الصحراء وإدراك الجاهلى لقيمتها وعنايته بها وحرصه عليها حرصه على وليده كان عاملا من العوامل التى ساعدت على نشأة الفروسية الجاهلية .

* * *

ولا نستطيع أن نهمل أثر الرياضة التى كان يزاولها الجاهلى كعامل من العوامل التى جعلت الفروسية الجاهلية تأخذ طابعها المألوف ولاسيما أن هذه الرياضة كانت تعتمد على فرسه وسلاحه إلى حد كبير . فقد عرف العرب السباق بين الأفراس وليست حرب داحس والغبراء إلا نتيجة لهذا السباق . وقد جاء فى مسند أحمد من حديث عبد الله بن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم سبق بين الخيل وأرهن وفى المسند أيضاً من حديث أنس أنه قيل له : أكنتم تراهنون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يراهن ؟ قال : نعم ، والله لقد راهن رسول الله صلى الله عليه وسلم على فرس له يقال له سبحة فسبق الناس فبش لذلك وأعجبه .

كذلك كان من رياضتهم ركوب الخيل والكر والفر بها ، والمقارعة بالسيوف والطعن بالرماح والرمى بالقوس والمصارعة بين ندين . وكانت تلك الرياضات تدريباً عملياً يفرض على الفتى

الجاهلى ليصبح فارساً . فقد عرف ابن القيم الجوزية الفروسية فقال : « الفروسية أربعة أنواع أحدها ركوب الخيل والكر والفر بها والثانى الرمى بالقوس ، والثالث المطاعنة بالرماح ، والرابع المداورة بالسيوف ، فمن استكملها استكمل الفروسية » .

كذلك صارع رسول الله صلى الله عليه وسلم شباب قريش قبل الإسلام وبعده فقد صارع ركانة بن عبد يزيد بن هشام ابن المطلب مرتين أو ثلاثا قبل إسلامه وقيل لقد كان ذلك سبب إسلام ركانة ، فقد روى أن ركانة بن عبد يزيد الذى صارع النبى صلى الله عليه وسلم قبل الإسلام وكان أشد الناس قال : يا محمد ! إن صارعتنى آمنت بك ، فصرعه النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال أشهد أنك ساحر ثم أسلم بعد .

كذلك كانت رياضة الصيد نوعاً من التدريب على تحكم الفارس فى فرسه وامتحاناً لقدرته على إصابة الهدف أثناء عدو جواده . والصيد ضرورة لجأ إليها الجاهلى لإشباع جوعه قبل أن يكون وسيلة من وسائل رياضته . وقد أتاحت له الصحراء بامتدادها الشاسع وحيواناتها الكثيرة السريعة العدو أن تتغلغل هذه الرياضة فى نفوسهم فكانوا يترنمون مشيدين بها واصفين لها ، ويفخرون ببراعتهم وقدرة خيولهم على العدو ، وكلنا يذكر صورة

امرئ القيس التى ذكر فيها كيف أن فرسه قيد الأوابد أى أنه استطاع أن يحاذى الوحوش فى عدوها فلا هى تسبقه ولا هو يسبقها ليمكن الفارس أن ينال بغيته فى صيدها . يقول واصفاً قدرته وقدرة جواده :

فعن لنا سرب كأن نعاجه   عذارى دوار فى ملاء مذيل
فأدبرن كالجزع المفصل بينه   بجيد معم فى العشيرة مخول
فألحقه بالهاديات ودونه   جواحرها فى صرة لم تزيل
فعادى عداء بين ثور ونعجة   دراكاً ولم ينضح بماء فيغسل
فظل طهاة اللحم من بين منضج   صفيف شواء أو قدير معجل

* * *

بقى سؤال أخير قد يتردد فى أذهاننا ونحن نعالج العوامل التى أثرت أو ساعدت فى نشأة الفروسية الجاهلية وهو : ألم تؤثر فروسية الروم أو الفرس فى فروسية الجاهليين وإلى أى مدى يمكن أن يتغلغل هذا التأثير ؟

لا شك أننا نعلم أن الجزيرة العربية لم تكن منفصلة عن العالم الخارجى ، فقد كان احتكاك العرب بالفرس والروم مستمراً منذ وقت طويل بسبب الحروب والتجارة ، فعرف العربى كيف يلبس الفرسان من الفرس والروم ، وعرف بأية أسلحة يقاتلون

كما عرف فنون قتالهم وكيف يصاولون و يداورون .

فخر العرب بالسيوف المشرفية عند ما يقول شاعرهم :

ولو سئلت عنا جنوب لخبرت عشية سالت عقرباء بها الدم
عشية لا تغنى الرماح مكانها ولا النبل إلا المشرفى المصمم

فلو بحثنا فى معنى المشرفى من السيوف نجد أن من معانى هذه الصفة أن السيوف المشرفية منسوبة إلى مشارف الشام الخاضعة للنفوذ الرومانى أو مشارف الهند التى تحد الإمبراطورية الفارسية من الشرق وكانت العلاقة بين عرب الجزيرة وبين هاتين الدولتين مستمرة فى الجاهلية سواء عن طريق التجارة أو الحرب .

كذلك افتخر العرب بالرماح الخطية ، ويقول الأصمعى : لا أعلم إلا نسبة الخط وهى جزيرة بالبحرين إليها تنتسب الرماح إلا أن يقال إن سفن الرماح ترفأ إلى هذا الموضع فقيل للرماح خطية . ونقول متسائلين : ومن أين كانت تجىء هذه السفن التى كانت ترسو فى جزائر البحرين ومنها تنتقل إلى الجزيرة العربية ؟ فإما أنها آتية من الهند أو جنوب فارس [1] .

كذلك يفتخر العرب بالكنائن الزغرية ، والكنانة محفظة

---

(١) عن الجوهرى : الخط موضع باليمامة ، وهو خط هجر تنسب إليه الرماح الخطية لأنها تحمل من بلاد الهند فتقوم به .

(اللسان مادة خطط)

النبال ، وهى منسوبة إلى زُغَر موضع بالشام تعمل به كنائن حمر مذهبة أى أنها من مناطق رومانية ، يقول أبو دؤاد واصفاً فرساً :

ككنانة الزُغرى زينها (م) من الذهب الدلاص

ومن عدتهم الحربية أيضاً الدرع وهو القميص المتخذ من الزرد ، ويظهر أن مثل هذه الدروع كانت تصنع أفضل أنواعها خارج الجزيرة العربية إذ يقول الشاعر العربى :

بكل فرعونية لونها لون فضيض البغشة الغاديه

فالدرع هو هذه الفرعونية منسوباً إلى فرعون مصر .

عرف العرب كذلك المنجنيق وهو آلة تقذف بها الحجارة أو الحرق المشتعلة على حصون الأعداء وقد نصب رسول الله صلى الله عليه وسلم منجنيقاً على أهل الطائف . وواضح أن هذه الآلة غير عربية .

إذن لا شك أن فروسية الشعوب الشمالية قد أثّرت فى الجزيرة العربية ولكننا لا نستطيع أن نقول إن هذه الشعوب أثرت فى العرب التأثير كله وإنما هو نوع من التأثير حتمته طبيعة المخالطة ، وفرضته هذه الاحتكاكات المستمرة .

وإذا أردنا أن نبين كيف أن العرب تفردوا فى كثير من مظاهر الفروسية ، فلنقارن بين فن القتال عند العرب هذا

الفن عند الفرس والروم ، فالخطة الجاهلية تعتمد على خفة المقاتل وسرعة حركته لينفذ مبدأ « الكر والفر » وهو المبدأ الذى تطبعت به الحروب العربية جميعها . يقول الألوسى : « وصفة الحرب الواقعة بين أهل الخليقة منذ أول وجودهم على نوعين : نوع بالزحف صفوفاً ، ونوع بالكر والفر . أما الذى بالزحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم ، وأما الذى بالكر والفر فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب » وتلك الخطة هى التى نجد امرأ القيس يدرب فرسه عليها ويمدحه بها عند ما يقول :

مكر مفر مقبل مدبر معا   كجلمود صخر حطه السيل من عل

وليس الكر والفر مبدأ اخترعه العرب وإنما فرضته ظروف الصحراء ، إذ عند ما يهاجم الجيش العربى قوات العدو ثم تشتد عليه وطأة القتال ينسحب إلى الصحراء — حاميته الأولى وحصنه الصعب الاختراق — فلا يستطيع العدو أن يتبعه داخلها ، فيجمع شمله وينظم صفوفه ثم يهجم ثانياً ، ويتكرر هذا الكر والفر حتى تتكسر قوة جيش العدو فيهجم الهجوم الأخير الساحق ويفسر بعض الباحثين الكثير من الحروب الإسلامية على أساس هذا المبدأ ، بل إن خالد بن الوليد قد نفذه تنفيذاً متقناً فى حروبه وخاصة فى غزوة أحد وفى موقعة اليرموك .

وبهذا المبدأ أيضاً يعلل بعض الباحثين نشأة المدن العسكرية الإسلامية كالكوفة والفسطاط . فعندما نزل عمرو بن العاص الجيزة رفض عمر بن الخطاب أن يعسكر الجيش الإسلامى فى هذه المنطقة الزراعية وطلب منه أن يختار مكاناً آخر يقع على أطراف الصحراء ليناسب البيئة العربية ثم لتحميهم الصحراء عندما يقوم الجيش بتنفيذ خطة «الكر والفر» ؛ ونحن نذكر كيف أن بعض القبائل التى نزلت الجيزة رفضت الانتقال بعد أن ألفت الحياة الناعمة ، فطلب منها عمرو بن العاص أن تبنى حصناً لها تلجأ إليه بدلا من اللجوء إلى الصحراء ، فرفضت هذه القبائل لأنها ليست ممن يقاتل من وراء الحصون وأخيراً قبلت بناء الحصن بعد جدال طويل .

أما الخطة الفارسية والرومانية فكانت عكس الخطة العربية ، فهم إما مهاجمون فى صورة زحف صفوفاً وراء صفوف ، أو مدافعون من وراء الحصون . وفى كلتا الحالتين يتحمل الجيش الكثير من الصعاب وخاصة إذا كان أمامه جيش من العرب ينفذ خطة « الكر والفر » فالمهاجم للجيش العربى إذا فشل هجومه تعرض للهزيمة ، والمدافع ضد هجماتهم من وراء الحصون تفل عزيمته ويرفع راية التسليم بعد حصار طويل تتفشى فيه المجاعة

والأمراض فتهوى روح الجيش المعنوية إلى الحضيض ، لذلك لم يغير العرب من خطتهم هذه حتى فى العصور الإسلامية الأولى عصور الفتح والحضارة الزاهرة .

وقد لا نستطيع فى هذا الكتيب الصغير أن نتناول بالمقارنة الطويلة مدى تأثير الفروسية الفارسية والرومانية فى فروسية الجاهليين ، ولكنى أعتقد أن هذه الإشارات السريعة تبين أن هناك نوعاً ما من التأثير وبخاصة فى بعض ألوان التسليح أو فى تقاليد المبارزات الفردية ، وكذلك فى تأثر الخيال العربى بنموذج الفارس الفارسى لأن قصص فرسان الفرس والأساطير التى تتناول حياتهم كقصص رستم واسفنديار كانت معروفة للجاهليين قبيل الإسلام ، وكانوا يستمعون إليها فى مجالس سمرهم وساعات لهوهم من قصاصين من العرب سافروا إلى الشمال والشرق وعاشوا بين هذه الشعوب فترات طويلة . ومن هؤلاء القصاص من عارض قصص القرآن بقصص الفرس ، وحاول أن يقلل من أهمية هذه الأخبار التى كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعظ قومه بها .

تلك إذن هى العوامل التى دعت إلى ظهور الفروسية الجاهلية والمؤثرات التى وجهتها وجهة معينة أو طبعتها بطابع خاص .

٢

والآن ما هى صفات الفارس العربى الجسمية وما هى تقاليده ومثله ، ثم ما هى أسلحته وألوان فروسيته ، وأخيراً ما هى أخلاقه وعلاقاته بمجتمعه الجاهلى وما نظرة هذا المجتمع إليه ؟ كل هذه الأسئلة يستطيع التاريخ القديم والشعر الجاهلى أن يجيبا عنها فى دقة .

ليس هناك اختلاف كبير فى التكوين الجسمى وملامح الخلقة بين الجاهلى القديم فى صحرائه وبين البدوى الحديث فى جزيرته . فكلاهما جاف العود ، صلب التكوين ، يميل إلى السمرة الشديدة بسبب حرارة الشمس وشظف العيش ، وقد يكون هناك اختلاف طفيف بين الفارس السيد والفارس العبد أو الصعلوك من ناحية المظهر الجسمى كظهور آثار النعمة والعيش الرغيد على السيد وعدم ظهورها على الصعلوك والعبد . وإذا تأمل إنسان وجه البدوى فسيجده أسود العينين مقوس الأنف شفتاه أقرب إلى الغلظة ، وشعره أقرب إلى التجعد . وهو يميل إلى الطول

لذلك مدح العرب الرجل الطويل النجاد أى طويل حمائل السيف يعنون بذلك مدح ظاهرة الطول فى العربى .

والعربى حديد البصر ، سريع العدو ، ماكر التفكير ، وكلها صفات تتطلبها البيئة التى يعيش فيها ، وليس معنى ذلك أن العرب جميعاً لهم تلك الصفات ، فهناك من اختلطت دماؤهم بدماء أجنبية لذلك نجد فيهم الأبيض اللون والأشقر الشعر ، كما نجد فيهم شديد سواد البشرة تشبه ملامحه ملامح الزنجى .

وإذا عرضنا لملابس الفارس العربى فسنجد رسالة من عمر ابن الخطاب ينصح فيها فرسان المسلمين يقول فيها : « أما بعد ؛ فاتزروا وارتدوا وانتعلوا ، والقوا الخفاف ، والقوا السراويلات ، وعليكم بثياب أبيكم إسماعيل ، وإياكم والتنعم وزى العجم ، وعليكم بالشمس فإنها حمام العرب ، وتمعددوا ، واخشوشنوا ، واخلولقوا ، واقطعوا الركب ، وانزوا على الخيل نزواً ، وارتموا الأغراض » .

وواضح فى هذه الرسالة أنها نوع من التعليم للفروسية كما يقول ابن القيم الجوزية ، فهى لا تصف ملابس الفارس العربى فحسب بل تحدد طريقة معيشته ، وتصور كيفية ركوبه ، وترسم خطة قتاله .

فقد أمر عمر بن الخطاب فرسانه بالائتزار والارتداء والانتعال وإلقاء الخفاف لتعتاد الأرجل الحر والبرد فتتصلب وتقوى على دفع أذاهما ؛ وأما قوله : « وألقوا السراويلات » فذلك استغناء عنها بالأزر فهو زى العرب إذ يدل قوله : « وعليكم بثياب أبيكم إسماعيل » أن لباسه كان الأزر والأردية وهى لباس العرب جميعاً الشائع بينهم . ولقد دعا عمر بن الخطاب فرسانه ألا يرتدوا زى الفرسان الأعاجم وهى تلك الملابس الثقيلة التى تعوق الحركة ، وتفقد الفارس سرعة المداورة ودقة المحاورة .

وينصح عمر فرسان المسلمين فيقول : « وعليكم بالشمس فإنها حمام العرب » فإن العرب لم تكن تعرف الحمام وكانوا يتعوضون عنه بالشمس فإنها تسخن وتحلل كما يقول ابن القيم . ولكن هذا القول لا ينفى أن العرب عرفوا الاغتسال . ويعنى عمر بقوله : « وتمعددوا » أى الزموا المعدية وهى عادة معد بن عدنان أب العرب وذلك فى أخلاقه وزيه وفروسيته . وقوله « واخشوشنوا واخلولقوا » أى تعاطوا ما يوجب الخشونة ويصلب الجسم وتهيئوا واستعدوا لما يراد منكم وكونوا خلقاء به جديرين بفعله . ثم قوله « واقطعوا الركب » فإنما أمرهم بذلك لئلا يعتادوا الركوب دائماً بالركاب فأحب أن يعودهم الركوب بلا ركب وأن ينزوا على

الخيل نزوًا ثم يرتموا الأغراض فيكون قصدهم فى الرمى الإصابة لا البعد .

فإذا نظرنا فى أسلحة الفارس الجاهلى فسوف نجد أن السيف أقربها إلى نفسه لأنه كما يقولون يُغْنى عن غيره ولا يغنى عنه غيره ويعمل به عمل السلاح كله ، إذ يذكر ابن هذيل الأندلسى أن العرب كانت تطعن به كالرمح ، وتضرب به كالعمود ، وتقطع به كالسكين ، وتجعله سوطاً ومقرعة ، وتتخذه جمالا فى الملأ ، وسراجاً فى الظلمة ، وأنساً فى الوحدة ، وجليساً فى الخلاء ، وضجيعاً للنائم ، ورفيقاً للسائر . قال عتبة بن عبد السلمى : أعطانى رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفاً قصيراً فقال : « إن لم تستطع أن تضرب به فاطعن به طعناً » لذلك اشتهرت السيوف العربية وكثرت أسماؤها فسموها عطافاً ووشاحاً وعصا ورداء وثوباً. كذلك أرخ العرب لها ولهجوا بها فى أشعارهم . قال الأحنف بن قيس : ما تزال العرب عرباً ما لبست العمائم وتقلدت السيوف ولم تَعْدُد الحلم ذلا .

وقد وصفت العرب السيف الجيد والسيف الردىء . فقد سأل أعرابى ابنين له عن أحب السيوف إليهما ، فقال أحدهما :

الصقيل الحسام ، الباتر المخذام [١] الماضى السطام [٢] ، المرهف [٣] الصمصام [٤] الذى إذا هززته لم يكب وإذا ضربت به لم ينب . فقال للآخر : فما تقول أنت ؟ فقال : نعم السيف نعت ، وغيره أحب إلى دونه . قال : وما هو ؟ قال : الحسام القاطع ، والرونق اللامع ، الظمآن الجائع ، الذى إذا هززته هتك ، وإذا ضربت به فتك . فقال لهما : أخبرانى عن أبغض السيوف إليكما ؟ فقال أحدهما : الفُطار [٥] الكهام [٦] ، النابى عن اللحم والعظام ، الذى إذا ضرب به لم يقطع ، وإذا ذبح به لم ينجع . فقال الآخر : فما تقول أنت ؟ قال : بئس السيف نعت وغيره أبغض إلىّ منه . قال : وما هو ؟ قال : الطبع [٧] الدّدان [٨] ، المعضد المهان ، الذى إذا ضرب به لم يسل الدم وإن أنت أكرهته .

---

(١) القاطع .
(٢) الحد .
(٣) الرقيق .
(٤) الذى لا ينثنى .
(٥) المتشقق .
(٦) الكليل .
(٧) الذى علاه الصدأ .
(٨) الذى لا يقطع .

كذلك تردد ذكر السيف فى أقوال العرب وأمثالهم فهم يقولون : السيف ظل الموت ولعاب المنية . ويكنونه بأبى الوجل .

ونتيجة لهذا التقدير نجد العرب يصفون كل جزء من أجزائه ويسمونه اسماً خاصًّا به فهذا جوهره وذاك ذبابه وظبته وغراره وعموده . . إلخ

وكذلك فعلوا بغمده .

وقد اشتهرت سيوف عربية إما لدقة صنعها أو شجاعة أصحابها فكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم جملة أسياف منها ذو الفقار الذى غنمه يوم بدر ، والعضب وكان أعطاه إياه سعد ابن عبادة ، ومنها أيضاً البتار والمخذم والرسوب والحتف .

وقد سأل عمر بن الخطاب يوماً عن أى سيوف العرب أمضى ؟ فقيل له : صمصامة عمرو بن معد يكرب الزبيدى ، فبعث عمر إلى عمرو أن يرسل إليه سيفه ، فبعث به إليه ، فلما ضرب به وجده دون ما كان يبلغه عنه ، فكتب إليه فى ذلك ، فرد إليه : إنى إنما بعثت إلى أمير المؤمنين بالسيف ولم أبعث إليه بالساعد الذى يضرب به !

يقول طرفة واصفاً سيفاً :

وآليت لا ينفك كشحى بطانةً لعضبٍ صقيل الشفرتين مهنّدِ
أخى ثقة لا ينثنى عن ضريبة إذا قيل: مهلا ، قال حاجزه : قد
إذا ابتدر القوم السلاح وجدتنى منيعاً إذا ابتلت بقائمه يدى

وتعتقد العرب أن السيف إذا سل من غمده دون أن يضرب به أورث الجبن . وهم يعرفون خطورة هذا السلاح فمن عمل به بغير حذر ولا دربة أصاب أذن فرسه أو عضده ، وربما أصاب أذن نفسه أو رجله فقطعها أو أثر فيها . لذلك يدربون الفارس الناشئ على طريقة استعماله ، وقد تطور هذا التدريب حتى عصر ابن هذيل حين يقول : ومن أراد التعلم به والتمرن فى الضرب فليعمد إلى قصبة رطبة أو قضيب رطب ، ويثبت أصله فى الأرض ، ويتوثق منه ، ثم يتباعد عنه ، ويجعله على يمينه ويجرى فرسه ملء فروجه ، فإذا دنا منه سل سيفه بسرعة وحذر وخفة ، ونفح [1] به ما يحاذى رأسه من ذلك القضيب أو القصبة أو يضرب ذلك شزراً [2] بلباقة وخفة ، يفعل ذلك مراراً يقص فى كل طلق منه ما أمكنه إلى أن يبقى قدر ذراع ، ويدمن العمل حتى يصير له عادة ويخف عليه العمل به .

---

(١) النفح : الضرب به إلى خارج اليمين .
(٢) الشزر : الضرب به عن يمين وشمال .

ويشرح القدماء طريقة استخدام الفارس لهذا السلاح فيقولون: إذا أراد الفارس العمل به طرّف رجله فى ركابه حتى لا يظهر منها شىء عن مقدم الركاب بحسب ما يمكن اعتماده عليه ، ويضرب بالسيف نفحاً وشزراً إلا ما كان قبالة وجهه فيكون حينئذ أشدّ حذراً على نفسه وفرسه ، ويعتلى يده عند الضرب به إلى الخارج ليكون آمنا ، ويطرح مقابله عن يمينه أبدا فى كل حال .

والرمح من أسلحة الفارس ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« عليكم بالقنا والقسى فبها نصر نبيكم وفتح لكم فى البلاد ».

وسئل أعرابى عن أحب الرماح إلى نفسه فقال : المارن المثقف ، المقوم المخطف ، الذى إذا هززته لم يتعطف وإن طعنت به لم يتقصف . ثم سئل عن أبغض الرماح إليه فقال : الأعصل عند الطعان ، المثلم السنان ، الذى إذا هززته انعطف ، وإذا ضربت به انقصف .

وللرمح أسماء عدة تبعا لأوصافه فهو صعدة إذا كانت العصا قد نبتت مستوية وهو لدن ومارن إذا كان لينا ، وسمهرى إذا كان شديدا ، وصدق إذا كان صلبا . وكذلك فصل العرب

أجزاءه وأعطوا لكل جزء اسما .

وتطور تدريب الفرسان على الطعن بالرماح على مر التاريخ العربي . يقول ابن هذيل فيمن أراد أن يركب جواده ورمحه معه إنه يأخذ رمحه بيمينه وعنانه بشماله مع قربوس[1] سرجه ، ويضع زُج رمحه بالأرض ويبعد منها قليلا ، ويضع صدر قدمه اليسرى فى ركابه الأيسر ثم يعتمد عل الرمح ويرفع نفسه على فرسه وينهض وهو يدير الرمح على كفل الفرس إلى الجانب الأيمن حتى يستقل بسرعة ثم يضع الرمح فى يساره مع العنان ويسوى ثيابه وآلته بيمينه ثم يصرف رمحه إلى يمينه . ولا ينبغى أن يتعرض الرجل لأخذ رمحه من الأرض وهو راكب فربما وطئه الفرس فكسره أو ضربه فأبعده عنه ، وحين ينزل بالرمح فهو يأخذه بيساره ويضع زجه بالأرض عند يد فرسه اليسرى ويأخذ القربوس بيده اليمنى ثم ينزل وحين يصير إلى الأرض يأخذ رمحه بيمينه بسرعة لئلا يدور عليه الفرس فيحطمه أو يصيب الأرض بسنانه أو يعقر أحداً .

وحين يدرب الفارس على العمل بالرمح يضع رديئة وهى

---

(١) قربوس السرج : حنوه .

عود أو شبهه قائما بالأرض قدر ارتفاع الفارس ، ويتوثق من أسفله ، ويشد فى أعلاه حلقه أو حبلا ملتويا يشبه الحلقة ، ثم يتباعد عنه ويجرى فرسه ملء فروجه فإذا قرب من تلك الرديئة تأبط رمحه وأخرج منه عن إبطه بقدر ما يخف عليه حمله وتحتمله قوته ثم يأخذ سنانه تلك الحلقة ، ثم يلوى رمحه بسرعة ليخلص السنان من الحلقة .

ومن أسلحة الفارس القوس والنبل . قال صلى الله عليه وسلم : «منتهى المؤمن القوس والنبل » والقسى جنسان : قوس اليد وهى العربية ، وقوس أفرنجية لم يعرفها الجاهليون . وكان الشنفرى من أوصف الشعراء للقسى بشهادة الحطيئة والفرزدق . قال :

وإنى كفانى فقد من ليس جازيا
بحسنى ولا فى قربة متعلل

ثلاثة أصحاب فؤاد مشيع
وأبيض أصليت وصفراء عيطل

هتوف من الملس المتون يزينها
رصائع قد نيطت إليها ومحمل

إذا زل عنها السهم حنت كأنها
مرزأة ثكلى ترن وتعول

كذلك عرف الجاهليون الدرع وهو القميص المتخذ من الزرد « والبيضة » وهى ما يلبس فى الرأس « والمجن أو الترس أو الدرقة » وهى أسماء ثلاثة لشيء واحد يصنع من الجلد يتقى الفرسان بها وقع السيوف .

وقد عرف العرب اللواء يتخذونه فى حروبهم يلتفون حوله ويستدلون به على قبائلهم حين يشتد القتال ويختلط الفرسان .

بقى بعد ذلك أهم عون للفارس فى القتال وهو فرسه . وقد قدر العرب الجواد تقديرا كبيرا ، ونظرة واحدة فى المكتبة العربية توضح إلى أى مدى اهتم المؤلفون بتسجيل تاريخ الأفراس وأنسابها ككتاب ابن هشام الكلبى فى نسب الخيل فى الجاهلية والإسلام وأخبارها ، وكتاب ابن الأعرابى فى أسماء الخيل وفرسانها ، والفصول الطويلة التى كتبها الجاحظ عنها فى كتاب الحيوان ، ثم ما جاء بعد ذلك عنها فى كل مؤلف يتعلق بتاريخ العرب وأحوال معيشتهم .

ولم تكن العرب تعد المال فى الجاهلية إلا الخيل والإبل ، وكان للخيل عندها مزية على الإبل فلم تكن تعدل بها غيرها ،

ولا ترى القوة والمنعة بسواها ، لذلك اهتم العرب بمعرفة خصائص هذا الحيوان ودرسوه دراسة طبيعية ونفسية . يقول الجاحظ : الفرس من طبعه الزهو فى المشى ويحب سائسه ويعجبه راكبه ، ولا يحب الأولاد ، وهو غيور ويعرف المصيبة . كذلك وصفوا أعضاءه وما يستحب منها خَلْقاً ولوناً . سأل عمر بن الخطاب العبسيين : أى الخيل وجدتموه أصبر فى حروبكم ؟ قالوا : الكميت .

وقال امرؤ القيس واصفاً جواده :

كميت يزل اللبد عن حال متنــه
كما زلت الصفواء بالمتنــزل

وقد وضعت العرب لعتاق الخيل أسماء تدل على عتقها وكرمها فى أوصاف مخصوصة فمن ذلك « الطرف » وهو الحسن الطويل « واللهموم » وهو الجيد الحسن الخلق الصبور على العدو « والنهد » العظيم الشديد الأعضاء وغير ذلك من أسماء تشير إليها كتب الخيل .

وكان العربى فى صباه يتعلم ركوب الخيل ليصبح فارسا فى شبابه ويقول ابن هذيل واصفا طريقة هذا التعليم : « واعلم

أرشدك الله أن أصل الفروسية الثبات وأن مبتدأها إنما هو الركوب على العرى من الخيل ، ومن لم يتدرب أولا على عرى لم يستحكم ثبوته فى الغالب ، بل يكون أبداً قلقا فى سرجه ، لا سيما عند خببه وركضه ، فلا يُؤْمَنُ سقوطه إن اضطرب فرسه أو أصابته هنة » . ثم يقول : « فمن أراد التفرس على العرى فليلبس ثياباً خفافاً مشهرة ، ويلجم فرسه ، ويشد عليه جُلّ صوف أو شعر وثيق الحزام واللبب ، فإن الراكب على الجلّ أثبت منه على المجرد ، ويقف على يسار فرسه عند منكبه ويمسك عنان لجامه بيده اليسرى . وإن أخذ العرفُ مع العنان فلا بأس به ، ويثب بسرعة وخفة ، فإذا استوى على ظهره جمع يديه فى العنان عند كاهل الفرس ، ونصب ظهره ، ولزم بفخذيه موضع دفتى السرج من ظهر الفرس ، ويتقدم قليلا ، فالتقدم أحسن على العرى من التأخر ، ويمد ركبتيه وساقيه وقدميه إلى كتفى الفرس حتى يمكنه أن ينظر إلى إبهامى قدميه ، وليكن اعتماده على اللزوم بفخذيه فبذلك يحوز الثبات » . وكل من لزم ركوبه غير ذلك فلا ركوب له ولا ثبات » .

وقد اشتهرت بعض الأفراس بشهرة فرسانها مثل العطاف

فرس عمرو بن معد يكرب الزبيدى ، والهطال فرس زيد الخيل ابن مهلهل الطائى وفيه يقول :

أقرب مربط الهطال إنى أرى حربا تلقح عن حيال
أسويه بمكنف إذ شتونا وأوثره على جل العيال

وقد سمى زيد الخيل لكثرة خيله ، فمن عتاقها غير الهطال : الكامل والكميت والورد ولاحق وذعول . كما اشتهر البريت فرس ابن قبيصة الطائى واليحموم فرس النعمان بن المنذر . وفى كتاب ابن الأعرابى فى أسماء الخيل نجده يذكر قوائم كثيرة لأسماء خيول القبائل ، كل قبيلة على حدة ، فتلك أسماء خيل بنى هاشم ثم خيل قريش وخيل بنى أسد وخيل بنى ضبة وخيل بنى سليم وخيل هوازن . . . إلى آخر سلسلة القبائل العربية .

وتتضح عناية العرب بخيلها إذا تصفحنا الكتب التى سجل فيها مؤلفوها أنساب الخيل ككتاب ابن هشام الكلبى إذ نشعر بقيمة الفرس وحرص الجاهلى على تسجيل نسبه ليقدر أصالته ، فداحس ذلك الفرس المشهور فى أيام عبس وذبيان هو ابن ذى العقال وأمه جلوى ، والغبراء خالة داحس وأخته لأبيه كما ذكر ابن الكلبى . وقد روى لأحد بنى عامر بن صعصعة

أبياتاً يصور فيها فضل الخيل على قومه . يقول فيها :

بنى عامر مالى أرى الخيل أصبحت
بطانا وبعض الضمر للخيل أفضل
بنى عامر إن الخيول وقاية
لأنفسكم والموت وقت مؤجل
أهينوا لها ما تكرمون وباشروا
صيانتها ، والصون للخيل أجمل
متى تكرموها يكرم المرء نفسه
وكل امرئ من قومه حيث ينزل

ويروى أن أحد فرسان العرب الجاهليين وهو عبيدة بن ربيعة التميمى قد طلب منه أحد ملوكهم فرسا تسمى سكاب فمنعها منه وقال :

أبيت اللعن إن سكاب علقٌ   نفيس لا يعار ولا يباع
مفداة مكرمة علينا   يجاع لها العيال ولا تجاع
سليلة سابقين تناجلاها   إذا نسبا يضمهما الكراع
ففيها عزة من غير نفر   يحيدها إذا حر القراع

فلا تطمع — أبيت اللعن — فيها ومنعكها بشئ يستطاع
وكفى تستقل بحمل سيفى وبى ممن تهضمنى امتناع
وحولى من بنى قحفان شيب وشبان إلى الهيجا سراع
إذا فزعوا فأمرهم جميع وإن لاقوا فأيديهم شعاع

فالفارس يتحدى الملك ويعلن أنه وقبيلته سيحاربون فى سبيل هذا الفرس حتى لا يأخذه الملك . وقد عرف العرب نفسية الخيل وأخلاقها وخاطبوها مخاطبتهم للآدمى . يقول عنترة مصورا حالة جواده ونفسيته أثناء المعركة .

فازور من وقع القنا بلبانه وشكى إلى بعبرة وتحمحم
لوكان يدرى ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمى

وإذا كان قد تحدثنا عن عدة الفارس : ملابسه وسلاحه وفرسه فقد بقى أن نعرف أخلاقه وتقاليده ومثله وعلاقاته بمجتمعه وعلاقة المجتمع به .

فلو نظرنا فى أخلاقه فسنجدها الأخلاق التى يتصف بها العرب جميعا وإن امتاز الفارس فيها امتيازا خاصًّا . فالفارس شجاع وكريم وعزيز النفس ، يحترم المرأة ويدافع عنها ، ويجير

المستجير ، ويغيث الملهوف ، ويعمل على رفع الظلم عن المظلومين ، وهو يخلص لعشيرته القريبة قبل إخلاصه لقبيلته الكبيرة فإذا تعارضت مصالحهما انضم فى أغلب الأحيان إلى جانب عشيرته القريبة ، فهى أولى بإخلاصه وحمايته . ثم هو بعد ذلك يشرب الخمر ويلهو بالنساء ويجد فى ذلك وفى تبذير ماله عليهما موطن فخر وزهو . وهو شاعر وخطيب يدافع عن قبيلته بلسانه كما يدافع عنها بسيفه ، ويفتخر بمآثرها فى شعره ، ويردد أمجادها فى قصائده . وقد أحب كثير من فرسان الجاهلية فصدحت أشعارهم بأعذب نغم ، وكشفت أغانيهم عن أرق العواطف وأنبل الأحاسيس .

وإذا أردنا أن نمثل لأخلاق الفرسان فسنجد أن افتخارهم بالشجاعة يشمل معظم أشعارهم وأقوالهم . فهم يتمادحون بالموت فى القتال ويتهاجون بالموت على الفراش ويقولون فيه « مات فلان حتف أنفه » وقد جاء أن أعرابيا بلغه قتل أخيه فقال : «إن يقتل فقد قتل أبوه وأخوه وعمه إنا والله لا نموت حتفا ولكن قعصا بأطراف الرماح ، وموتا تحت ظلال السيوف » .

قال عنترة :

بكرت تخوفنى الحتوف كأننى
أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل

فأجبتها إن المنية منهل
لا بد أن أسقى بكأس المنهل

فاقنى حياءك لا أبالك واعلمى
أنى امرؤ سأموت إن لم أقتل

ولم يعتمد فرسان القبيلة الواحدة فى حروبهم على أعدادهم بقدر ما كانوا يعتمدون على شجاعتهم وقدرتهم فى القتال ، فقد قيل لعنتره : كم كنتم يوم الفروق ؟ قال : كنا مائة كالذهب لم نكثر فنكل ولم نقل فنذل » .

وكما افتخر العرب بشجاعتهم افتخارا عظيما افتخروا أيضا بقدرتهم وكفاءتهم كفرسان مدربين . قال ربيعة بن مقروم الضبي :

ولقد شهدت الخيل يوم طرادها
بسليم أوظفة القوائم هيكل

فدعوا نزال فكنتُ أول نازل
وعلام أركبه إذا لم أنزل

وألــد ذى حنـق علىّ كأنمـا
تغلى عـداوة صـدره فى مرجل
أرجبتـه عنى فأبصر قصـده
وكويتـه فوق النـواظر من عل

وقد اشتهر من فرسان الجاهليين كثيرون ضربت بشجاعتهم الأمثال منهم خالد بن جعفر بن كلاب العامرى ، وعتيبة بن حارث ، وربيعة بن مكدم وعنترة العبسى وملاعب الأسنة وابن جذل الطعان ، وزيد الخيل ، وزيد الفوارس وعامر بن الطفيل . والملاحظ أن بعض هؤلاء الفرسان لقبوا بألقاب مشتقة من أسماء السلاح كملاعب الأسنة أو بشهرتهم فى استعمال أسلحتهم كابن جذل الطعان . وسوف نترجم لبعضهم فى هذا الكتاب .

وكما اشتهر الفرسان بالشجاعة اشتهروا بالكرم أيضا . يقول عروة أحد فرسان الصعاليك :

سلى الطارق المعتر يا أم مالك إذا ما أتانى بين قدرى ومجزرى
أيسفرُ وجهى أنه أول القرى وأبذل معروفى له دون منكر

وأخبار سخاء هذا الفارس صفحة رائعة من صفحات الخلق

العربى فى الإيثار وبذل ما فى اليد للمحتاج .

يقول عمرو بن كلثوم مصورا كرم قبيلته وشجاعة أفرادها

نعم أناسنا ونعف عنهم ... ونحمل عنهم ما حملونا
نطاعن ما تراخى الناس عنا ... ونضرب بالسيوف إذا غشينا

ونلمح خصائص خلقية أخرى للفارس الجاهلى حين يقول :

أثنى علىّ بما علمت فإننى ... سمح مخالقتى إذا لم أظلم
فإذا ظلمت فإن ظلمى باسل ... مُر مذاقتـــه كطعم العلقم
وإذا شربت فإننى مستهلك ... مالى وعرضى وافر لم يُكلم
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى ... وكما علمت شمائلى وتكرمى

فمن صفات الفارس إذن أنه يشرب الخمر ويبذل ماله فى شرائها لأنها علامة من علامات الرجولة والثراء ، كما أنها علامة من علامات السيادة والكرم .

والفارس العربى حليم سمح الخلق إلا إذا ظلم فعندئذ يصبح ثورة تدمر ظالميه كما يقول عنترة . ومن الحكم المشهورة لدى الجاهليين « إذا ملكت فاسجح » ، والإسجاح حسن العفو .

وقد ترنم العرب بهذه الخلة الخلقية ، واعتبروها من صفات الرجل العظيم . يقول المهلهل الفارس المشهور فى إحدى مراثيه لأخيه كليب :

وإنك كنت تحلم عن رجال … وتعفو عنهم ولك اقتـــدار
وتمنــع أن يمسهم لســان … مخــافة من يجــير ولا يجار

ونسمع معن بن أوس يكظم غيظه لإساءة بعض الناس له يهم من أقاربه فيبلغ القمة فى الحلم حين يقول :

وذى رحم قلمت أظفار ضغنـــه
بحلمى عنه وهو ليس له حلم
يحـــاول رغمى لا يحاول غـــيره
وكالموت عندى أن يعرّ به الرغم
وإن أعف عنه أغض عينا على قذى
وليس له بالصفح عن ذنبه علمُ
صبرتُ على ما كان بينى وبينه
وما يستوى حرب الأقارب والسلم

ويقول الحارث بن وعلة الجرمى يقتل بعض أقاربه أخاه :

ومى هم قتـــلوا أميم أخى … فإذا رميت يصيبنى سهمى

فلئن عفوت لأعفونْ جللا　　ولئن سطوت لأوهين عظمى

ورغم أن الفارس العربى حليم صابر إلا أنه يأبى الضيم ويرفض الذل والهوان . يقول عمرو بن كلثوم :

إذا ما الملك سام الناس خسفا　　أبينا أن نقر الذل فينا

ألا لا يجهلن أحـــد علينـــا　　فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ويقول عنترة :

لا تسقنى ماء الحيـــاة بذلة　　بل فاسقنى بالعز كأس الحنظل

والفارس العربى صادق وفىّ ، يكره الغدر ، ويأبى نقض المواثيق ، وكان العرب يشهرون من لا يعرفون بالعهود فى سوق عكاظ ، فيرفعون لهم ألوية ليعرفهم الناس بغدرهم فلا يعاملوهم . يقول قطبة بن أوس ينفى الغدر عن نفسه وعن قومه :

أسُمَىَّ ويحك هل سمعت بغدرة
رفــع اللــواء لنا بها فى مجمع
إنا نعف فلا نريب حليفنا
ونكف شح نفوسنا فى المطمع

وتاريخ الفروسية الجاهلية يحفظ كثيراً من أمثلة الوفاء بالوعد وتمسك الفارس العربى بكلمته مهما وقع عليه من غبن

بسبب ذلك ، فهذا الحارث بن عباد يأسر عدى بن ربيعة المشهور بالمهلهل قاتل ولده بجير فى حرب البسوس وكان لا يعرفه ، فيسأله عن مكان المهلهل فيقول له : أتطلق سراحى إن دللتك عليه ؟ فيعده بهذا ، فيكشف عن شخصيته ويخبره أنه هو المهلهل ، ويضطر الحارث أن يطلقه وفاء بوعده ، ويكتفى بجز ناصيته .

والفارس العربى يحمى الضعيف ويدفع عنه الظلم ، ويتمثل هذا الخلق فى حماية الجار وهو ذلك الشخص الذى ينزل بجوار آخر طالبا حمايته فإذا قبل جواره صار واحدا من أفراد أسرته وقبيلته وسمى حليفا أو مولى أو جارا ، له كل ما لأفراد القبيلة من حقوق . وقانون الصحراء يأبى على العربى رفض الجوار بل إنه ليغضب إذا رحل عنه جاره وتنازل عن حمايته له . وكثيرا ما شبت الحرب وفتكت بالقبائل فتكا ذريعاً لأن جار قبيلة قد أهين أو اعتدى عليه وهذا ما وقع فى حرب البسوس حين رمى كليب ناقة البسوس جارة جساس بسهم فى ضرعها فما كان من جساس إلا أن قتل كليبا رغم أنه زوج أخته .

وكانت حماية الجار دليلا على عظم شأن القبيلة الحامية

وشهرة فرسانها وقوة نفوذها بين القبائل .

وقد بلغت تقاليدهم فى حماية الضعفاء حد حماية الوحوش وإجارة الطيور رحمة بها وإحساسا بقدرتهم وشأو فروسيتهم ، بل إن منهم من كان يجير من الإنس والجن كما فعل عامر بن الطفيل مع الأعشى حين استجار الأخير به ، فقال له : أتجيرنى من الإنس والجن ؟ قال : أجرك . قال : ومن الموت ؟ قال : نعم ! قال : وكيف تجيرنى من الموت ؟ قال : إن مت وأنت فى جوارى بعثت إلى أهلك الدية . قال : الآن علمت أنك قد أجرتنى من الموت .

ومن مظاهر حماية الضعيف تلبية الفرسان لنداء المستغيث ولو كان ظالما . وكان يعد من نقص المروءة أن يسأل الفارس عن السبب الذى دفع المستغيث أن يناديه أو اللاجئ أن يطلب عونه قبل أن يمد يد المساعدة له ، وهذا دليل الشجاعة الفائقة التى لا يحدها حد ولا يقيدها قيد .

قال الحطيئة يصف فرسانا :

إذا ما دعـــوا لم يسألوا من دعاهم
ولم يمسكوا فـــوق القلوب الخوافق

وطاروا إلى الجرد العتاق وألجموا
وشدوا على أوساطهم بالمناطق
أولئك آباء الغريب وغاثة الصريخ (م)
ومأوى المرملين الدرادق
أحلوا حياض المجد فوق جباههم
مكان النواصى من وجوه السوابق

وقد أجل الفارس الجاهلى المرأة أيما إجلال ، ودافع عنها لسببين : الأول أنه دفاع عن العرض والشرف والآخر أنها تمثل نوعا من حماية الضعيف المخفوض الجناح . ويُسمى الفارس المدافع عن النساء والأعراض حامى الذمار ، وحماية الذمار صفة من الصفات التى يحب الفارس الجاهلى أن يمدح بها . يقول زهير مادحا :

حامى الذمار على محافظة الـ (م)
ـجلى أمين مغيب الصدر

ويقول عمرو بن كلثوم :

على آثارنا بيض كرام نحاذر أن تفارق أو تهونا

وكان العار الذى يلحق العربى أن تؤسر نساؤه أو يهمل فى

الدفاع عنها ، وفى هذا يقول الشاعر محرضا قومه على القتال دفاعا عن شرف المرأة :

من فر منكم فرّ عن حريمه   وجـــار وفر عن نديمـــه

والفارس العربى لا يهتك ستر امرأة أو يتعرض لها بسوء أو يرفع نظره إلى وجهها يقول عنترة :

وأغض طرفى إن بدت لى جارتى

حتى يوارى جـــارتى مأواهـــا

وتقول الخنساء فى رثاء أخيها صخر :

لم ترأه جارة يمشى بساحتها   لريبة حين يُخلى بيته الجار

تلك هى أخلاق الفارس الجاهلى ومثله .

ظاهرة أخيرة يلحظها القارئ فى أخبار الجاهليين تتعلق بمفهوم السيادة وعلاقة هذا المفهوم بالفروسية . لقد ارتبطت هذه السيادة ارتباطا شديدا بالقيم التى تضفيها صفة الفروسية على السيد ، فالفارس عربى حر له مكانته فى القبيلة ، بل له المكانة الأولى والمفضلة فيها ، فهذا عامر بن الطفيل عندما يستسلم لربيعة بن مكدم فى معركة من المعارك ويجز ربيعة

ناصيته تخلعه القبيلة من رياستها وترفض أن يتولى قيادتها بعد ذلك مدة طويلة حتى يساعده ربيعة على استعادة مكانته ، كما أن العبد يستطيع أن يتحرر ويتولى مكان الصدارة فى الحروب ويصبح سيدا من سادات القبيلة إذا استطاع أن يوفى بمطالب الفروسية وأن يحقق النصر والكرامة لقبيلته كما فعل عنترة :

لهذا اختلفت مكانة الفارس فى المجتمع الجاهلى عن مكانته فى المجتمع الفارسى المعاصر له مثلا ، فالفارس فى الدولة الفارسية جندى وتابع للملك أو للأمير يأخذ أجره ويقاتل فى سبيله ، وقد يكون هذا الفارس مؤجرا أو عبدا مشترى فيظل مقاتلا مخلصا حتى تضعف مكانة الملك أو الأمير أو تقل نقوده فيخرج عليه أو يلجأ إلى منافسه أما الفارس العربى فهو أب يدافع عن أسرته ونعمه ، وابن يدافع عن والديه وإخوته ، وشيخ يدافع عن كيان قبيلته ووجودها . وكل مقاتل سيد من سادات مجتمعه الصغير أو مجتمعه الكبير ، ارتبط مصيره بمصير هذا المجتمع ، وارتبط وجوده بوجود مجموع هذه القبيلة ، ففى فنائها ضياع له ، وفى قوتها تمكين لشخصيته القبلية .

وأخيرا وبعد كل هذه الفضائل التى عرفناها عن الفروسية

الجاهلية نقول إنها لا تخلو من العيوب والنقائص شأنها فى هذا شأن الفروسية الغربية فيما بعد . فرغم أن الفرسان الجاهليين أشادوا بالمرأة فى شعرهم ودافعوا عن شرفها ، وضحوا بحياتهم فى سبيل استردادها من سبى ، أو حمايتها فى ظعن ، فقد ظلت ضعيفة الجانب مهضومة الجناح ، لا يرفعون لها قدرا أو يحترمون لها جنسا . فهم يسيئون بها الظن ويرمونها بالغدر والخيانة بل يدفنونها حية تشاؤما بها أو تخلصا من عارها .

ولم يكن الدفاع عن المرأة دفاعا مطلقا ، أى أن العربى يدافع عنها سواء كانت من قبيلته أو من غيرها ، وإنما كان يدافع عن المرأة من قبيلته أو الجارة لها ، أما نساء القبائل الأخرى وخاصة القبائل المعادية فكانت حلاً له .

كذلك لم تتنزه فروسيتهم عن غلاظة الطبع والعنجهية والكبرياء وخشونه المظهر وذلك كله بسبب طبيعة الصحراء والحياة التى يحيونها كذلك لم تتنزه عن التكالب على الأسلاب والغنائم ، والفتك بالفرسان فى سبيل مغنم تافه ، أو مسلب ضئيل .

وقد لجأ بعض الفرسان إلى الخداع والحيل الدنيئة ، والغدر

والخيانة إذ أن قانون الصحراء يفرض عليهم اللجوء إلى هذه الوسائل ليحافظوا على أرواحهم ، ويبقوا على وجودهم فى هذه البيئة المتصارعة ، والظروف الصعبة الشائكة ، ولكن كل هذا لا ينفى أن الفروسية الجاهلية كانت من فضائل العرب التى رفعت من مكانتهم ، وسمت بأخلاقهم لما جُبل عليه الفرسان من بطولة وفداء فى سبيل مثل وأخلاق عالية .

عمرو بن يكرب

هو أحد الفرسان الشعراء الذين اشتهروا فى النصف الثانى من القرن السادس للميلاد قبيل الإسلام. وكنيته أبو ثور ، واسمه عمرو بن معد يكرب وينتهى نسبه إلى زبيد فهو فارس قحطانى . عن أبى عبيدة قال : كان عمرو بن معد يكرب فارس اليمن وهو متقدم على زيد الخيل أحد فرسان العرب المشهورين فى الشدة والبأس .

وكانت شجاعته معترفا بها بين العرب ، بل كان عمر ابن الخطاب يعده بألف فارس وإن كان لا يثق بحسن تصرفه فى قيادة الجيوش ، فعندما بعثه إلى سعد بن أبى وقاص كتب إليه يقول : « أمددتك بألفى رجل : عمرو بن معد يكرب وطليحة الأسدى ، فشاورهما فى الحرب ولا تولهما شيئا » فحارب أبو ثور مع سعدوأبلى أحسن البلاء

ويمثل أبو ثور الفارس العربى البدوى فى صفاته وحياته

خير تمثيل . وقد ذكرت الروايات أنه دخل الإسلام فى السنة التاسعة أو العاشرة من الهجرة .

وأبوه هو معديكرب بن عبد الله بن عمرو من سادات بنى زبيد وكان من الفرسان المعدودين فى الجاهلية ، وكان لا يتوسم خيراً فى ولده إذ كان عمرو شابًّا لاهيا عابثا أكولا منصرفا إلى الشراب ، لذلك لقبه والده بالمائق أى الأحمق الذى لا يصلح لشئ . وفى يوم بلغ بنى زبيد أن قبيلة خثعم سوف تغير عليهم فجمع معد يكرب بنى زبيد ، وتأهبت القبيلة لصدهم . ودخل عمرو على أخته فقال : اشبعينى إن غدا الكتيبة ! فلما جاء والده أخبرته ابنته بقول عمرو فقال : هذا المائق يقول ذلك ؟ قالت : نعم . قال : فسليه ما يشبعه . فسألته ، فقال : فرق من ذرة وعنز رباعية . فصنع له ذلك وذبح العنز وهيء له الطعام فجلس حتى أتى عليه كله ثم نام . وجاء الصباح . وأتتهم خثعم مغيرة فالتقت بها زبيد واشتد القتال فاستيقظ عمرو فرفع رأسه ونظر فرأى لواء أبيه مرفوعا فعاد ونام . وبعد فترة رفع رأسه ثانية ونظر فإذا بلواء أبيه قد نزل فهب مندفعاً نحو القتال كالنار المستعرة فلقى والده راجعاً منهزما

فقال له : انزل عن فرسك فاليوم ظلم ، فقال له : إليك يا مائق . فقال له بنو زبيد : خله أيها الرجل وما يريد فإن قتل كفيت مؤنته وإن ظهر فهو لك . فألقى إليه سلاحه فركب ورمى خثعم بنفسه حتى خرج من بين أظهرهم ثم كر عليهم وفعل ذلك مراراً وحملت عليهم بنو زبيد فانهزمت خثعم وقهروا . فلقب عمرو يومئذ بفارس زبيد .

وقد جاء فى أخبار نهم عمرو أنه جاء عمر بن الخطاب وهو يغدى الناس وقد جفن لعشرة عشرة فأقعده عمر مع عشرة ، فأكلوا ونهضوا ولم يقم عمرو فأقعد معه تكملة عشرة حتى أكل مع ثلاثين ثم قام فقال : يا أمير المؤمنين إنه كانت لى مآكل فى الجاهلية منعنى منها الإسلام ، وقد صررت فى بطنى صرتين وتركت بينهما هواء فسده . قال عمر : عليك حجارة من حجارة الحرة فسده به يا عمرو .

ويظهر أن أبا ثور لم يستطع أن يمتنع عن كل مآكل الجاهلية ، إذ أنه لم يمتنع عن شرب الخمر رغم معرفته برأى الإسلام فيها ، ويظهر أيضا أن سعد بن أبى وقاص غفر له شربه عندما علم بذلك اعترافا بما قام به فى حرب القادسية إذ

جاء أنه قال حين قيل له إن عمرو بن معد يكرب قد وقع فى الخمر : لقد كان له موطن صالح يوم القادسية عظيم الفناء شديد النكاية للعدو .

وقال الإخباريون فى أخبار شربه أن صديقة عيينة بن حصن نزل عليه زائرا وهو فى الكوفة وكانا رفيقى شراب فى الجاهلية . فوقف عيينه ببابه ونادى : أى أبا ثور ، اخرج إلينا . فخرج إليه مؤتزرا وقال له مرحبا : أنعم صباحا أبا مالك . فقال عيينه : أو ليس قد أبدلنا الله تعالى بهذا السلام عليكم . فقال عمرو : دعنا مما لا نعرف ! إنزل فإن عندى كبشا سياحا . فنزل فعمد إلى الكبش فذبحه وألقاه فى قدر وطبخه حتى إذا نضج جاء بجفنة عظيمة فثرد فيها فأكفأ القدر عليها فقعدا فأكلاه . ثم قال له : أى الشراب أحب إليك اللبن أم ما كنا نتنادم عليه فى الجاهلية . قال أو ليس قد حرمها الله — جل وعز — علينا فى الإسلام . قال عمرو : أنت أكبر سنا أم أنا ؟ قال عيينه : أنت ! فقال عمرو : فأنت أقدم إسلاما أم أنا ؟ قال : أنت ! قال عمرو : فإنى قد قرأت ما بين دفتى المصحف فوالله ما وجدت له تحريما إلا أنه قال « فهل أنتم

منتهون » فقلنا : لا ، فسكت وسكتنا ، فقال عيينه له : أنت أكبر سنا وأقدم إسلاما فجلسا يتناشدان ويشربان ويذكران أيام الجاهلية حتى أمسيا . فلما أراد عيينه الانصراف قال عمرو : لئن انصرف أبو مالك بغير عطاء إنه لوصمة عار . فأمر بناقة عظيمة له وأربعة آلاف درهم ، فرفض عيينه المال وأخذ الناقة وانصرف وهو ينشد :

جزيت أبا ثور جزاء كرامة
فنعم الفتى المزدار والمتضيف
قريت فأكرمت القرى وأفدتنا
تحية علم لم تكن قط تعرف
وقلت حلال أن تدير مدامة
كلون انعقاق البرق والليل مسدف
وقدمت فيها حجة عربية
ترد إلى الأنصاف من ليس ينصف
وأنت لنا والله ذى العرش قدوة
إذا صدنا عن شربها المتكلف
يقول أبو ثور أحل حرامها
وقول أبي ثور أسد وأعرف

ويظهر أن عمراً كان رقيق الدين كما تدل هذه الرواية ، إذ أنه يفتى فى الدين بغير حرج ويحلل المحرم ، كما أنه ادعى مرة معرفته بالقرآن وهو يجهله وكان ذلك بعد أن أصاب المسلمون أموالا كثيرة فى معركة القادسية ، فأخذ سعد بن أبى وقاص نصيب ديوان المال وهو خمس الغنيمة ووزع البقية على جند المسلمين فأصاب الفارس ستة آلاف درهم وأصاب الراجل ألفين . وأخذ أبو ثور نصيب الفارس وبقى بعد ذلك مال كثير لم يوزع . فكتب سعد إلى عمر يسأله ما يفعل بهذا المال . فأرسل إليه عمر أن يوزعه على حفظة القرآن فى الجيش . فدعاهم سعد فجاءوا وبينهم أبو ثور . فدهش سعد من وجوده بينهم وهو يعلم أنه لا يحفظه فسأله : ما معك من كتاب الله ؟ فقال عمرو : إنى أسلمت باليمن ثم غزوت فشغلت عن حفظ القرآن . قال سعد : مالك فى هذا المال نصيب . فغضب أبو ثور وأنشد :

إذا قتلنـــا ، ولا يبكى لنا أحد
قالت قريش : ألا تلك المقادير
نعطى السوية من طعن له نفــذ
ولا ســوية إذ تعطى الدنانير

فكتب سعد إلى عمرو بن الخطاب يخبره بذلك ، فأذن له عمر بأن يعطيه على بلائه فى القتال فأعطاه ألفى درهم . وكان عمر يعرف قدر أبى ثور دائما ويعامله على أنه فارس من فرسان الجاهلية المشهورين وخاصة عندما كتب إليه سعد بن أبى وقاص يثنى على فروسية أبى ثور وشدته فى قتال الفرس . وكان عمر قد رصد له ألفين من الدراهم فقال له عمرو : يا أمير المؤمنين ألف ههنا وأومأ إلى شق بطنه الأيمن وألف ههنا وأومأ إلى شق بطنه الأيسر فما يكون ههنا وأومأ إلى وسط بطنه . فضحك عمر وزاده خمسمائة .

ومن دلائل رقة دين أبى ثور أيضا أنه كان من المرتدين بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وناصر الأسود العنسى الخارج على الإسلام ، فلما أخفقت ثورة العنسى واستسلم أبو ثور لم يشأ الخليفة قتله بل أحب أن يعيده إلى الإسلام فقال له مؤنبا : أما تخزى يا عمرو ! إنك فى كل يوم مهزوم أو مأسور لو ناصرت هذا الدين لرفعك الله . ثم خلى سبيله ، وعاش عمرو بقية حياته على هامش الدين .

وقد بارز عمرو أشهر فرسان الجاهلية وكان يقول : لو سرت

بطعينة وحدى على مياه معد كلها ما خفت أن أغلب عليها مالم يلقنى حراها أو عبداها فأما الحران فعامر بن الطفيل وعتيبة بن الحارث بن شهاب ، وأما العبدان فأسود بنى عبس يعنى عنترة والسليك بن السلكة ، وكلهم قد لقيت .

وقد اشتهر سيف عمرو الذى كان يسمى بالصمصامة وهو السيف الذى طلب عمر بن الخطاب رؤيته فأرسله له فلم يعجب الخليفة فأرسل إليه عمرو قائلا : إنما بعثت إلى أمير المؤمنين بالسيف ولم أبعث إليه بالساعد الذى يضرب به .

وكان عمرو ذا قوة جسدية خارقة ظهرت خاصة فى موقعة القادسية فكان يأسر الفارس ويلوى رقبته بيديه فيقتله ثم يذبحه ويقول إنما الفارس تيس بعد أن يلقى يبرك ! .

وجاء أنه بعد أن عبر نهر القادسية كانت فرسه ضعيفة فطلب غيرها فجاءوا له بفرس فأخذ بعكوة ذنبه وأجلد به إلى الأرض فأقعى الفرس فردّه ، وجاءوا له بآخر ففعل به مثل ذلك فلم يقع ، فقال هذا على كل حال أقوى من تلك ، وقال لأصحابه إنى حامل وعابر الجسر فإن أسرعتم بمقدار جزر الجزور

وجدتموني وسيفي بيدي أقاتل به تلقاء وجهي وقد عقرني القوم وأنا قائم بينهم وقد قتلتُ وجردتُ ، وإن أبطأتم وجدتموني قتيلا بينهم وقد قُتِلتُ وجُرِّدتُ . ثم حمل في العدو فقال بعضهم يا بني زبيد ، تدعون صاحبكم ؛ والله ما نرى أن تدركوه حيا ، فحملوا فانتهوا إليه وقد صرع عن فرسه وقد أخذ برجل فرسل رجل من العجم فأمسكها والفارس يضرب الفرس فما تقدر أن تتحرك من يده ، فرمى الأعجمي بنفسه وترك فرسه فركبه عمرو .

وكان لأبي ثور طريقة خاصة في القتال ، قال واحد ممن شاهد موقعة القادسية : شهدت القادسية فرأيت يوما اشتد فيه القتال بيننا وبين الفرس ورأيت رجلا يومئذ يفعل بالعدو الأفاعيل ، يقاتل فارسا ثم يقتحم عن فرسه ويربط مقوده في حقوه فيقاتل ، فسأل الرجل : من هذا جزاه الله خيرا ؟ قالوا له : هذا عمرو بن معد يكرب !

وكان أبو ثور يقول للمسلمين يوم القادسية ألزموا خراطيم الفيلة السيوف فإنه ليس لها مقتل إلا خراطيمها . وكان الفرس يقاتلون فوق الفيلة . وقد شدّ أبو ثور على رستم قائد الجيش الفارسي وهو على فيل فضرب خرطومه وجذم عرقوبيه فسقط

الفيل وسقط رستم من فوقه فقتل .

وحدث عندما بلغ أبو ثور أرذل عمره أن جاء رجل وأراد أن يمتحن قوة أبي ثور ، وكان هذا راكبا فرسا له ، فأدخل الرجل يده بين ساقه وبين السرج وفطن عمرو فضمها عليه وحرك فرسه فجعل الرجل يعدو مع الفرس لا يقدر أن ينزع يده حتى إذا بلغ منه قال له أبو ثور : يا ابن أخي مالك ! قال : يدى تحت ساقك ، فخلى أبو ثور عنه وقال له : يا ابن أخي إن في عمك بقية !

ويظهر أن أبا ثور لم يكن متهورا رغم شجاعته وقوته ، فقد جاء أن الصمة بن بكر أغار على بني زبيد فاستاق إبلهم وسبي ريحانة أخت أبي ثور وانهزمت زبيد ، فتبعه عمرو وأخوه عبد الله ابنا معد يكرب ثم رجع عبد الله واتبعه عمرو وأخذ يناشد الصمة بن بكر أن يخلى عن أخته فلم يفعل ، فلما يئس منها رجع وهي تناديه بأعلى صوتها : يا عمرو ! ولم يقدر على انتزاعها ثم قال :

أمن ريحـــانة الداعي السميع يؤرقني وأصحـــابي هجوع
سباها الصمة الجشمي غصبا كأن بياض غرتها صديع

وحالت دونها فرسان قيس تكشف عن سواعدها الدروع
إذا لم تستطع شيئا فدعــه وجاوزه إلى ما تستطيع

ويذكرون أن ربيعة بن مكدم أحد فرسان العرب العظام طعن عمرو ابن معد يكرب فألقاه عن فرسه وأخذ فرسه ، وأنه لقيه مرة أخرى فضربه فوقعت الضربة فى قربوس السرج فقطعته حتى عض السيف بكاثبة الفرس فسالمه عمرو وانصرف .

وكان عمرو يتحدث عن فراره إذا لم يجد فيه عيبا وذلك عندما يشعر بأنه لا يستطيع أن يستمر فى القتال . فقد لقى مرة بنى عبس فى أبطالهم ففر عنهم هاربا ، وفى هذا يقول :

لقيت أبا شاس وشاساً ومالكا
وقيساً فجاشت من لقائهم نفسى
لقــونا فضموا جانبينا بصـــادق
من الطعن مثل النار فى الحطب اليبس
ولما دخلنـــا تحت فىء رمـــاحهم
خبطتُ بكفى أطلب الأرض باللمس
وليس يعاب المرء من جبن يومه
إذا عُرفت منه الشجاعة بالأمس

وكان عمرو يميل إلى الكذب أحيانا ، فقد حدث أن وقف إلى جانب خالد بن الصقعب النهدى فأقبل عليه يحدثه ويقول :

أغرتُ على بنى نهد فخرجوا إلى مسترعفين بخالد بن الصقعب يقدمهم فطعنته طعنة فوقع ، وضربته بالصمصامة حتى فاضت نفسه ، فقال له الرجل : يا أبا ثور ! أنا مقتولك الذى تحدث ! فقال عمرو : اللهم غفرا ، إنما أنت محدث فاستمع ! وإنما نحن نتحدث بمثل هذا لنرهب هذه المعدية ! . وهم العرب الشماليون وكان التنافس والصراع شديدا بينهم وبين اليمنية . وكان الراوية خلف الأحمر يتعصب لليمنية فإذا سئل عن كذب عمرو قال : كان يكذب باللسان ويصدق بالفعال .

وهكذا كان أبو ثور ، فارس مغوار فى الجاهلية ولكنه ليس متهورا ، نهما أكولا خفيف الظل مع ذلك ، وكان فى الإسلام أحد أبطاله المحاربين وإن كان رقيق الدين غير حريص على تجنب ما حرم ، والبعد عما نهى عنه . وأثرت فيه عصبية اليمنية ضد المضرية مما دفعه إلى الكذب فى سبيل هذه العصبية . وقد كرّمه الخلفاء والقواد العظام وعرفوا قدره محاربا شجاعا وفارسا قويا . وقد تعددت الروايات فى كيفية موته ، وإن كان

أكثرها رجحانا أنه مات بالفالج في نهاية عهد عمر بن الخطاب وقد شارف المائة أو عدّاها بقليل .

ومن شعره يصف استعداده للمعركة :

أعـــددت للحـــرب فضفاضـــة
دلاصـــا تثنى على الراهش (١)
وأجـــرد مطـــردا كالرشـــاء
وسيفَ ســـلامة ذى فائش (٢)
وذات عـــداد لهـــا أزمـــلٌ
برنّهـــا رمـــاةُ بنى وابش (٣)

(١) فضفاضة : واسعة يريد الدرع . الدلاص : اللينة البراقة الملساء . الراهش : أعصاب وعروق الذراع وجمعها رواهش .

(٢) أجرد : يعنى به الرمح قد سويت كعوبه فأصبح أملساً . مطرد : مستقيم . الرشاء : الحبل . سلامة ذو فائش : هو سلامة بن زيد بن مرة من قبيلة يحصب وقيل إنه قيل من أقيال اليمن . وفائش : واد كان يحميه باليمن .

(٣) ذات عداد : يريد القوس وعدادها صوت رنين وترها . الأزمل : الصوت . بنو وابش قبيلتان اشتهرت إحداهما وهى بنو وابش بن زيد بن عدوان بأنها من أرمى الناس

وكلّ نحيـض فتيـق الغـرار
عـزوف على ظفر الرائش [١]

وأجـرد سـاط كشاة الإرا
ن ريـع فعن على الناجش [٢]

وآوى إلى فـرع جـرثومـة
وعـز يفوت يد الناهش [٣]

تمتعتُ ذاك وكنت أمـرأ
أصـد عن الخـلق الفاحش

ويقول واصفا بطولته فى معركة :

لمـا رأيت نسـاءنا يفحصن بالمعـزاء شدا
وبدتْ لميس كأنها بدر والسماء إذا تبـدا
وبـدت محاسنها التى تخفى وكان الأمر جدا

---

(١) النحيص : السهم المرقق . فتيق : عريض . غرار : حد . عزوف : تسمع له صوتاً . الرائش : الذى يريش السهم .

(٢) أجرد : يعنى جواداً أجرد أى قصير الشعر وتلك علامة على امتيازه . ساط : بعيد الخطوة . شاة الإران : الثور الوحشى . الناجش : الذى يثير الصيد ليمر على الصياد .

(٣) الجرثومة : الأصل .

نازلت كبشهم ولم أر من نزال الكبش بدا
هم ينذرون دمى وأنـــذر إن لقيت بأن أشدا
كم من أخ لى صالح بوّأتـــه بيـــدىّ لحدا
ما إن جزعت ولا هلعت ولا يردّ بـــكاى زندا
ألبسته أثـــوا بـــه وخلقت يوم خلقت جلدا
أغنى غنـــاء الذاهبين أعد الأعـــداء عـــدا
ذهب الذين أحبهم وبقيتُ مثل السيف فردا

عروة بن الورد

فارس من عبس ، وعبس اشتهرت بفرسانها المبرزين وشعرائها المشهورين ولكن فروسيته من نوع آخر غير الذى وجدناه عند معديكرب مثلا إذ هى فروسية صعلوك تختلف فى بواعثها وملامحها العامة عن فروسية السادة .

وقد ذكرت من قبل من هم الصعاليك . وقلت إنهم فئة من العرب طردتهم قبائلهم أو خرجوا هم عن ولائها بسبب اضطهاد قبائلهم لهم وإحساسهم بعدم المساواة مع نظائرهم سواء كانت هذه المساوة اجتماعية أو اقتصادية فأرادوا أن يحققوا بأنفسهم هذه المساواة وأن يأخذوا بنصيبهم كاملا فى كل ما يحق لإنسان حر أن يأخذه فى مجتمع ما . وكان سبيلهم فى هذا « الغزو والإغارة للسلب والنهب » .

وقد تخلص صعاليك العرب جميعاً سواء الخلعاء منهم أو الأغربة أو الفقراء المتمردون من فكرة العصبية الجاهلية أو

الانتماء لقبيلة يدافعون عنها ويخضعون لتقاليدها ويحرصون على رضائها ، فأصبحت تصرفاتهم غير مرتبطة بالحياة الاجتماعية العامة فى قبائلهم بل إنهم استعاضوا عن هذه العصبية القبلية بعصبية مذهبية تجعلهم يخضعون فى سلوكهم لهذا المنطق الجديد الذى اختاروه لأنفسهم ، والمذهب الذى عملوا من أجله ، وهو غزو وسلب للميسورين وتوزيع الغنيمة على المعسرين سواء كانوا منهم أو من غيرهم ممن ليسوا من مذهبهم .

وقد اشتهر كثيرون من فرسان الصعاليك أمثال السليك بن السلكة الذى هابه عمرو بن معديكرب كما ذكرنا آنفاً ، والشنفرى تلك الشخصية التى كان لا يرضيها إلا أن تستغل بطولتها الفردية فى أن ترى رءوس الأغنياء المترفين تتطاير تحت ضربات سيوفها ، ثم عروة بن الورد الذى كان تمرده وسيلة لغاية إنسانية نبيلة هى رفع الظلم عن المظلومين وحماية الضعفاء من سيطرة القساة المتجبرين من سادة القبائل . وكان عروة الداعية الحقيقى لهذا المذهب سواء فى شعره أو فى تصرفاته مع الآخرين .

وكانت عبس تتشاءم من والد عروة وهو الورد بن زيد بن عبد الله لأنه كان السبب فى حرب داحس والغبراء التى نشبت

بيها وبين فزارة حين راهن حذيفة بن بدر الفزارى على أن خيول قيس بن زهير العبسى أفضل من خيله .

وكانت أمه من نهد إحدى قبائل قضاعة ، ويظهر أن عروة كان ساخطاً على أمه أو على قبيلتها لسبب أو لآخر وذلك لأننا نراه يهجو أخواله هجاء مرًّا . ويقول أحد الباحثين أن سبب هذا السخط هو أن قبيلة نهد كانت أقل شرفاً من قبيلة عبس قبيلة أبيه . فكان هذان السببان :

تشاؤم قبيلته من والده ، وقلة شأن قبيلة أمه ، من العوامل الرئيسية التى جعلته يشعر بالظلم الاجتماعى فى مجتمعه القبلى[١].

ويقول الإخباريون أن والده كان يفضل أخاه الأصغر

---

(١) قال عروة هاجياً أخواله :

ما بى من عار أخال علمته	سوى أن أخوالى إذا نسبوا نهد
إذا ما أردت المجد قصر مجدهم	فأعيا على أن يقاربنى المجد
فياليتهم لم يضربوا فى ضربة	وأنى عبد فيهم وأبى عبد
ثعالب فى الحرب العوان وإن تبخ	وتنفرج الجلى فإنهم الأسد

تبخ الحرب أى تنطفىء .

عليه مما ضاعف إحساسه بهذا الظلم وخاصة أنه كان مرهف الحس رقيق العاطفة فقد كان يغنم الكثير ثم يوزع ما غنمه على طائفته سواء من خرج منهم إلى الغزو أو من لم يخرج لضعفه أو لمرضه . وكان يأخذ نصيبه مساوياً لنصيب أى فرد منهم . لذلك أصبحت شخصيته أقرب إلى شخصية رب الأسرة فى أسرته الصغيرة منها إلى شخ ية الزعيم فى عشيرته ولذلك أطلق عليه عروة الصعاليك .

وقد عرف الصعاليك هذه الأخلاق عن عروة ، فكان إذا أصابهم قحط أتوه فجلسوا أمام بيته حتى إذا بصروا به صرخوا وقالوا : يا أبا الصعاليك أغثنا ! . فيخرج ليغزو بهم . وحدث أن نهته امرأته مرة عن الخروج لما تخوفت عليه من الهلاك ، فعصاها وخرج غازياً ، فمر على بعض من يعرفهم فسألوه أين يريد ، فأخبرهم . فأمروا له بجزور فنحروها وأكل منها ، وأشاروا عليه أن يرجع ، فعصاهم ومضى حتى انتهى إلى بلاد بنى القين فأغار عليهم فأصاب هجمة عاد بها على نفسه وأصحابه . وقال فى ذلك :

أرى أم حسان الغداة تلومنى　　　تخوفنى الأعداء والنفس أخوف

وتقول سلمى لو أقمت لسرنا ولم تدر أنى للمقام أطوف
لعل الذى خوفتنا من أمامنـــا يصادفه فى أهله المتخلف

وقد لقب عروة بأسماء تدل على صفاته فهو أبو نجدة وهو مانع الضيم ، بل إن أخلاقه أسمى من هذه الصفات جميعاً فقد كان يقدم طعامه للجائع وهو جوعان ويقدم شرابه للظامئ وهو فى حاجة إليه ، وهو يجهد ويتعب ليجعل إناءه مشتركاً بينه وبين غيره وهو يصور هذا كله فيقول :

وإنى امرؤ عافى إنائى شركة وأنت امرؤ عافى إنائك واحد
أتهزأ منى أن سمنت وأن ترى بجسمى مس الحق ، والحق جاهد
أقسم جسمى فى جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد

وأحب شيء إلى نفس عروة أن يسطو على الأغنياء البخلاء ليعطى الفقراء المعوزين ، أما أولئك الذين عرف عنهم الكرم وبسط اليد فلم يكن يعتدى عليهم بل كان يمدحهم بجودهم كما مدح مالك بن حمار لكرمه . وكيف لا يمدحهم وهو نفسه يلزم نفسه هذه الخلة ، فإذا ناقشته امرأته فى هذا التبذير عنفها ورفض أن يسمع لها ، بل إن الضيف عنده فى المكان الأول وعليه أن يقدم له كل ما فى منزله والبشاشة فى وجهه أول

مظهر من مظاهر إكرامه يقول :

فراشي فراش الضيف والبيت بيته ولم يلهني عنه غزال مقنع
أحدثه إن الحديث من القرى وتعلم نفسي أنه سوف يهجع

لهذا قال عبد الملك بن مروان : من زعم أن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد . وكان معاوية وهو خليفة يتمنى أن يكون لعروة ولد ليصاهره ويشرف بالانتساب إليه .

وتظهر فروسية عروة أول ما تظهر فى قدرته كقائد حربى لجيش الصعاليك إن صح هذا التعبير . فقد كان يرسم الخطط الدقيقة التى تضمن لهم الفوز . فقد جاء أنه خرج بصعاليكه إلى أرض بنى القين ، فهبط أرضاً ذات حجارة كبيرة فيها ماء فرأى آثاراً فقال : هذه آثار من يرد هذا الماء فأكمنوا ، فأحر أن يكون قد جاءكم رزق . فأقاموا يوماً ثم ورد عليهم فصيل فقالوا : دعنا فلنأخذه فلنأكل منه يوماً أو يومين . فقال : إنكم إذن تنفرون أهله وإن بعده إبلا . فتركوه فندموا وجعلوا يلومون عروة عندما هدهم الجوع وأجهدهم ، ثم وردت الإبل وفيها ظعينة ورجل معه سيف ورمح فخرج إليه عروة فرماه بسهم فخر ميتاً واستاق عروة الإبل والظعينة حتى أتى قومه .

وبهذا استطاع عروة بفضل مهارته وخبرته أن يضرب حين تحين الفرصة المناسبة .

ومن مظاهر هذه القيادة الحكيمة أيضاً أنه كان إذا نزل فى مكان بعث بصعلوك فيرتقى ربوة عاليه ليراقب الطريق وينذرهم إن رأى ما يخشونه ، ويقول فى ذلك :

إذا ما هبطنا منهلا فى مخوفة . بعثنا ربيئا فى المرابئ كالجذل
يقلب فى الأرض الفضاء بطرفه وهن مناخات ومرجلنا يغلى

وعند ما قتل الشنفرى الصعلوك ، وقف زميله تأبط شراً يرثيه ويتذكر كيف وقف مراقباً فى انتظار فرائسه :

ومرقبة شماء أقعيت فوقهـــا ليغنم غاز أو ليدرك ثائر

ويعلل عروة لمغامراته بكثرة أضيافه وقلة ماله وكثرة عياله فكان عليه أن يغامر فى سبيل الحصول على المال .

ومن يك مثلى ذا عيال ومقترا من المال يطرح نفسه كل مطرح

والصعلوك يفضل الموت على أن يعيش ذليلا جائعاً ، وهو لا يخاف هذا الموت لأنه يعلم أنه واقع له لا محالة ، وكان هذا هو أساس تكوينه النفسى . يقول عروة :

إذا المرء لم يبعث سواماً ولم يرح   عليه ، ولم تعطف عليه أقاربه
فللموت خير للفتى من حياته   فقيراً . ومن مولى تدب عقاربه

ويقول :

فقلت له : ألا أحى وأنت حر   ستشبع فى حياتك أو تموت

لهذا كانت شجاعة الصعلوك شجاعة خارقة ، وهى شجاعة خافتها القبائل ، كما خافها الفرسان كما ظهر فى قول عمرو بن معديكرب .

ولم يكن الفارس الصعلوك يعتمد على فرسه دائماً وإنما كانت رجلاه خير معين له فى الهجوم وفى الهروب ، لذلك اشتهر الصعاليك بسرعة العدو ، وكثيراً ما كانت هذه الخاصية سبباً فى نجاتهم من مآزق كثيرة . ويجيب أبو خراش الصعلوك ابنته عند ما سألته كيف سلم من ذلك المأزق الذى أوقع نفسه فيه أنه نجا بسرعة عدوه ولولا ذلك لأصبحت امرأته أمة ويتم ابنه .

تقول ابنتى لما رأتنى عشيـــة
سلمت وما إن كدت بالأمس تسلم

ولولا دراك الشد قاظت حليلتى
تخيّر من خطابها وهى أيّم
فتقعد أو ترضى مكانى خليفة
وكاد خراش يوم ذلك ييتّم

وهذا صعلوك يرى أن رجليه أثمن ما فيه وهو يفديهما بأمه وخالته :

فدى لكما رجلىّ أمى وخالتى بسعيكما بين الصفا والأثائب

وعلى هذا فقد كانت غزوات الصعاليك تعتمد على أرجلهم كما اعتمدت على أفراسهم وهم فى هذا يختلفون عن الفرسان السادة الذين كان جل اعتمادهم على الخيل . وفى شعر عروة أحاديث كثيرة عن هذين الأسلوبين من أساليب الغزو ، فها هو تخاطبه امرأته وتلومه على غارته المتكررة بأولئك الرّجليين الذين يعتمدون فى غزواتهم على أرجلهم . وبإخوانهم الفرسان الذين يعتمدون على الخيل :

تقول : لك الويلات ، هل أنت تارك
ضبوءاً[1] برجل تارة وبمنسر

---

(١) ضبأ : اختبأ واستتر ليختل . المنسر : جماعة الخيل .

ويقول أيضاً مصوراً هذين الأسلوبين فى الغزو :

لعـــل انطلاقى فى البلاد ورحلتى
وشدى حيازيم المطية بالرحل

سيـــدفعنى يوماً إلى رب هجمة
يدافع عنها بالعقوق وبالبخل

قليل تواليهـــا وطالب وترها
إذا صحت فيها بالفوارس والرجل

وقد وفر الفرسان الصعاليك لغزواتهم كل عناصر النجاح وتحقيق الأهداف ، ففيهم قوة الجسم . وشدة البأس ، وشجاعة القلب ، وصدق العزيمة . وسرعة العدو . وهم أيضاً واسعو الحيلة عميقو الدهاء يعرفون كيف يتخلصون من المآزق الضيقة والمواقف الحرجة ففى أخبار الشنفرى أنه كان إذا سار بالليل نزع نعلا ولبس نعلا وضرب برجله حتى يموه على الناس فيظنونه الضبع ، وفى أخبار السليك بن السلكة أنه احتال على رجل فى سوق عكاظ حتى عرف منه منازل قومه تمهيداً للإغارة عليها .

كذلك وفر الصعاليك كل أنواع السلاح المعروفة فى عصرهم وبيئتهم لمعاركهم وقد وصفوا تلك الأسلحة فى شعرهم

وتحدثوا عن قيمتها فى حياتهم ، ويذكر عروة أنه لن يترك بعد موته سوى سيف ورمح ودرع ومغفر وجواد . وهذا هو ما سوف يرثه وارثوه من بعده :

وذى أمل يرجو تراثى ، وإن ما
يصير له منـه غدا لقليل
ومالى مال غير درع ومغفـر
وأبيض من ماء الحديد صقيـل
وأسمر خطى القنـاة مثقف
وأجرد عريان السراة طويل

وتفوق خبرة الفارس الصعلوك بالصحراء خبرة الفارس السيد وذلك بسبب طبيعة حياته التى تعتمد على الإغارة والتشرد ، إذ إن فى معرفة دروبها درباً درباً وجبالها جبلا جبلا إنقاذاً لحياته وتأمينا لطرق مواصلاته ، ولذلك وصفهم القدماء بأنهم « أهدى من القطا ، وقالوا « أدل من قطاه » لذلك برعوا فى وصفهم لهذه الصحراء ووهادها وهضابها ووحوشها ونباتها ، وهم لا ينسون أنفسهم فى كل هذا الوصف وإنما يصورون كيف تغلبوا على هذه الصحراء فقطعوها وصارعوا وحوشها وكمنوا فى مغاراتها .

والصحراء جزء من نفوسهم بل هى كل حياتهم وهم فى هذا يختلفون عن وصف الفرسان السادة لها ، فالفارس السيد ينظر إلى الصحراء على أنها مادة من مواد الفخر بنفسه أو بقبيلته. أما الفارس الصعلوك فهو وقد وهنت فيه هذه النزعة القبلية ينظر إلى الصحراء وكأنه ينظر إلى نفسه فهو قد امتزج بها وأصبح كيانها وكيانه كلا واحداً ، فهى تعيش فى نفسه ليلا ونهاراً ، لا ينساها أبداً فى صحوه أو نومه . وقد ألف كل عناصرها وصادق كل ما اشتملت عليه من حيوان أو نبات أو مسالك وحرار ، فهذا تأبط شرًّا يقول إنه قد ألفته وحوش الصحراء واطمأنت إليه حتّى لتوشك أن تصافحه لو أن وحشاً تصافح إنساً :

يبيت بمغنى الوحش حتّى ألفنه
ويصبح لا يحمى لها الدهر مرتعا

رأين فتى لا صيد وحش يهمه
فلو صافحت إنسا لصافحنه معا

وأخيراً فعند ما ننظر إلى نموذج الصعلوك الذى يحبه أبو الصعاليك والنموذج الذى يكره . نجد ذلك مصوراً فى شعره عندما يقول إن آسوأ صعلوك عنده هو ذلك الذى يقضى حياته

ذليلا مهاناً ، كسولا خاملا قاعداً عن طلب الغنى ، ليست فيه شده الصعلوك الحقيقى وصلابته ، وإباؤه وشجاعته وإنما يخدم نساء الحى المترفات .

لحى الله صعلوكاً إذا جن ليـــله
مصافى المشاش آلفاً كل مجزر
يعد الغنى من دهره كل ليلة
أصاب قراها من صديق ميسر
ينـــام عشاء ثم يصبح طاويا
يحث الحصى عن جنبه المتعفر
قليل التماس الزاد إلا لنفسه
إذا هو أمسى كالعريش المجور
يعين نساء الحى ما يستعنــــه
فيمسى طليحاً كالبعير المحسر

أما الصعلوك الذى يقدره عروة فهو صعلوك نشيط بعيد الغارة ، يلقى المنية وهو عارف أنها نصيبه ، ويعيش فينفق أمواله فيما يخلد مآثره فى حياته وبعد موته :

ولكن صعلوكاً صحيفة وجهه كضوء شهاب القابس المتنور

مُطلاًّ على أعدائه يزجرونه بساحتهم زجر المنيح المشهر

فإن بعدوا لا يأمنون اقترابه تشوف أهل الغائب المتنظر

فذلك إن يلق المنية يلقها حميداً وإن يستغن يوماً فأجدر

وقد وردت أبيات أخرى قريبة الشبه من أبيات عروة تنسب إلى حاتم الطائى وهى تصور أيضاً الفرق بين الصعلوك الكسلول والصعلوك النشيط :

لحى الله صعلوكاً مناه وهمه
من العيش أن يلقى لبوساً ومطعما

ينام الضحى حتى إذا الليل جنّه
تنبه مثلوج الفؤاد مُورّما

مقيماً مع المثرين ليس ببارح
إذا نال جدوى من طعام ومجثما

ولكن صعلوكاً يساور همّه
ويمضى على الهيجاء ليثا مصمما

فتى طلبات لا يرى الخمص ترحة
ولا شبعة إن نالها عد مغنما

إذا ما رأى يوماً مكارم أعرضت
تيمم كبراهن ثمت صمما

ترى رمحه ونبـــله ومجنــــه
وذا شطب عضب الضريبة مخذماً
فذلك إن يلق الكريهة يلقها
حميـــداً وإن يستغن يوماً فربما

عنترة بن شداد

أى صدى فى النفس يخلفه وقع هذا البيت عند ما نسمع المنشد يردد :

وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت
ألفيتُ خيراً من مُعِمٍ مخول

لا شك أنها نفسية فارس من طابع يختلف عما ألفه المجتمع الجاهلى فى الفخر ، فالشاعر عند ما يفخر فإنما يفخر بنسبه من ناحيتيه : ناحية أمه وناحية أبيه . أما شاعرنا فهو لا يستمد عناصر فخره من أعمامه أو من أخواله وإنما يستمده من نفسه ، من بطولته وفروسيته ، من ضرباته وهجماته ، من إقدامه حين تحجم الفرسان ، ومن جرأته حين تجبن الكتائب . ذلك الفارس الشاعر هو عنترة بن شداد العبسى .

فإذا نظرنا فى مكونات شخصية هذا الفارس ، فسوف نجدها ترتكز على عنصرين :

أولهما أنه عبد رغم أن أباه سيد من سادات عبس ، فقد

كانت أمه أمَة حبشية يقال لها زبيبة كان قد سباها عمرو بن شداد في إحدى غزواته ، وكان من تقاليد الجاهليين أن لايعترفوا ببنوة أبنائهم الذين جاءوا من إمائهم ، وإنما تستعبدهم القبيلة ، فإن أنجبوا اعترفت بهم وإلا بقوا عبيداً . لهذا كان عنترة أسود اللون كأمه كما كان عبداً .

أما العنصر الآخر فهو نتيجة للعنصر الأول ، وذلك أن قبيلته عاملته معاملة العبد وهى لا تعلم ما يدور فى نفسه من خوالج ، وما تضطرم به مشاعره من ثورات على هذا الوضع فقد كانت القبيلة إذا خرجت للغزو وغنمت الغنائم لا تفرض لعبيدها نصيباً رغم أنهم شاركوا فى هذه الحرب ساداتهم ، كذلك كانت امرأة أبيه تحتك به وتدفع أباه إلى ضربه ، فقد حدث أن جاءت شداد مرة وقالت : إنه يراودنى عن نفسى . فغضب عمرو بن شداد غضباً شديداً وضربه ضرباً مبرحاً بل ضربه بالسيف فلما رأت ما به من الجراح كفته عنه وبكت نادمة وكان اسمها سمية فقال عنترة :

أمن سمية دمع العين مذروف

لو أن ذا منك قبل اليوم معروف

كأنهـا يوم صـدت ما تكلمنى
ظبي بعسفان ساجى العين مطروف[١]
تجللتنى إذ أهوى العصا قبلى
كأنها صنم يعتاد معكوف[٢]
العبـد عبدكم والمال مالكم
فهل عذابك عنى اليوم مصروف
تنسى بلائى إذا ما غارة لحقت
تخرج منها الطوالات السراعيف[٣]
يخرجن منهـا وقد بلت رحائلها
بالماء تركضها الشم الغطايف[٤]
قد أطعن الطعنة النجلاء عن عرض
تصفر كف أخيها وهو منزوف

لهذا كانت فروسية عنترة نموذجاً مخالفاً لنموذج الفارس السيد والفارس الصعلوك فى دوافعها النفسية وفى موقف القبيلة

---

(١) عسفان : منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة .
(٢) صنم يعتاد : يؤتى مرة بعد مرة .
(٣) الطوالات : الخيل ، السراعيف : السراع .
(٤) الغطاريف : الكرام والسادة .

منها وموقفها من القبيلة . فالفارس السيد ابن قبيلته البار فهو عند ما يتغنى ببطولته لا ينسى أن هذه البطولة إنما هى ملك القبيلة . بل إنه يتغنى بكل شاب وصبي وطفل يستطيع أن يباهى به لأنه عنوان لبأس القبيلة ورمز لخشية أعدائها لها يقول عمرو بن كلثوم وهو يحس قيمة قبيلته ، مشيداً ببطولة كل فرد فيها :

إذا بلغ الرضيع لنا فطاما تخر له الجبابر ساجدينا

أما الفارس الصعلوك فهو ابن جماعته الصغيرة ومذهبها فى الحياة ، ابن صحرائه بوحوشها ونباتها وعواصفها ، وفروسيته قائمة على صداقة عناصرها الطبيعية ومعاداة أناسها الظالمين يقول الشنفرى :

ولى دونكم أهلون : سيد عملس
وأرقط زهلول ، وعرفاء جيأل[1]
هم الأهل، لا مستودع السر ذائع
لديهم ، ولا الجانى بما جر يخذل

---

(١) السيد : الذئب . العملس : القوى على السير السريع . الأرقط : المراد به النمر . الزهلول : الأملس . العرفاء : الضبع الطويلة العرف . جيأل : اسم للضبع .

فأهله هم الذئاب والنمور والضباع وهم قوم شرفاء ، السم لديهم لا يذاع وجانبهم لا يخذل .

أما عنترة الفارس العبد فهو ابن بطولته ، ابن صراعه اليوم فى سبيل حريته وفى سبيل إبقائه على حياته ، فإذا فتشنا فى شعره عن فخر بنسب فلن نجد إلا البيتين يفتخر فى الأول بنسبه من جهة والده ويفتخر فى الثانى ببطولته تعويضاً عن نسبه من جهة أمه . يقول :

إنى امرؤ من خير عبس منصباً
شطرى وأحمى سائرى بالمنصل
وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت
ألفيت خيراً من معم مخـــول

فشطره الأول من خير عبس منصباً ، وشطره الآخر يحميه ببطولته وفروسيته فى ميدان القتال ولا يحميه نسبه لأمه ، بل إنه يعد ذلك فوق كل الأنساب .

وزاد من ضيق عنترة بواقعه المر ، وألهب من ثورته العارمة ضد قومه وضد أعدائه على السواء ذلك الحب اليائس الذى ملأ فؤاده ، وسهد جفنه ، بل زاد من إحساسه . بحطه منزلته الاجتماعية فدفعه . نحو انفجار نفسى مروع جعله يطلب

الحرية بكل الوسائل ليتساوى مع من يحب فتخاذل عن دخول معارك قومه حتى يعترفوا به حرا من أحرار القبيلة ، وفارساً من فرسانها السادة . فقد حدث أن أغارت عبس على طيئ فأصابوا نعماً فلما أرادوا القسمة قالوا لعنترة : لانقسم لك نصيباً مثل أنصبا ئنا لأنك عبد، وطال ذلك ثم حدث أن كرت عليهم طيئ فاعتزلهم عنترة وقال : دونكم القوم فإنكم عددهم . واستنقذت طيئ الإبل . فقال له أبوه : كر يا عنترة فقال : أو يحسن العبد الكر ! فقال له أبوه : العبد غيرك ؛ فاعترف به ، فكر واستنقذ النعم ، وجعل يقول :

أنا الهجين عنترة كل امرئ يحمى حره
أسوده وأحمره والشعرات المشعره
الواردات مشفرة

وبهذا اعترف والده ببنوته عند ما أثبت عنترة بطولته .

وأصبحت فروسية عنترة بعد ذلك وحبه شيئاً واحداً ، فهو عند ما يغنى حبه فإنما يغنى فروسيته ، وعند ما يدخل المعركة فعبلة هى التى فى مخيلته يهبها بطولته ، ويتخذها أيقونة له ، وفى كلتا الحالتين يبرر لها سواده أروع تبرير ، فيكرم ذاته ، ويفاخر بشدته وبأسه :

أعبلة قد زاد شوقى وما أرى الدهر يدنى إلى الأحبا
وكم جهد نائبة قد لقيت لأجلك يا بنت عمى ونكبة
فلو أن عينيك يوم اللقـــاء ترى موقفى زدت لى فى المحبة
يفيض سنانى دماء النحـــور ورمحى يشك مع الدرع قلبه
وأفرح بالسيف تحت الغبار إذا ما ضربت به ألف ضربه
وتشهد لى الخيل يوم الطعان بأنى أفرقها ألف سربه[١]
وإن كان جلدى يرى أسوداً فلى فى المكارم عز ورتبة
ولو صلت العرب يوم الوغى لأبطالها كنت للعرب كعبة
ولو أن للموت شخصاً يرى لروعته ولأكثرت رعبه

وتقف القبيلة ضد حبه لأنه عبد ويقطع عنترة الصحراء ليلا ونهاراً يبثها أشجانه ، وينشدها خفقات قلبه ، وهو لا ينسى فى كل هذا نفسه وبطولته فهو كما قلت ابن لهذه البطولة فهى نسبه وهى أصدقاؤه

كم ليلة سرت فى البيداء منفرداً والليل للغرب قد مالت كواكبه
سيفى أنيسى ورمحى كلما نهمت أسد الدحال إليها مال جانبه[٢]

---

(١) السربه بالضم : الجماعة من الخيل .

(٢) الدحال : جمع داحل وهو نقب ضيق فمه ثم يتسع أسفله ينبت فيه نبات السدر .

وكم غدير مزجت الماء فيه دماً   عندالصباح وراح الوحش طالبه
ياطامعا فى هلاكى عد بلا طمع   ولا تردكأس حتف أنت شاربه

وتشف هذه النفس الغليظة فى الحرب أمام الحب شفافية البلور ، وذلك حينما يعاتبها ويعاتب قومها الذين وقفوا ضد هذا الحب .

ألا يا عبل قد زاد التصابى
ولج اليوم قومك فى عذابى
وظل هواك ينمو كل يوم
كما ينمو مشيبى فى شبابى
عتبت صروف دهرى فيك حتى
فنى وأبيك عمرى فى العتاب
ولاقيت العدا وحفظت قوماً
أضاعونى ولم يرعوا جنابى

ويقص علينا عنترة رأى عبلة فيه فى قصيدة رواها الأصمعى وتعتبر من غرر القصائد التى وردت فى ديوانه إذ أننا نشعر فيه بهذا المحب المفاخر وهذا التضاحك بين فتى وفتاة يعيشان فى أروع فترات حياتهما ، فترات التبادل العاطفى ، والترابط القلبى . يقول :

عجبت عبيلة من فتى متبـــذل
عارى الأشاجع شاحب كالمنصل

شعث المفـــارق منهج سرباله
لم يدهن حولا ولم يترجل

لا يكتسى إلا الحديد إذا اكتسى
وكذاك كل مغاور مستبسل

قد طالما لبس الحديد فإنما
صـــدأ الحديد بجلده لم يغسل

فهذا العجب عجب حبيبة من حبيبها فهى تهتم به وتعيب عليه أنه لا يغتسل . وأنه قد أصبح شاحب الوجه نحيف الجسم ، وليس معنى هذا أنها تأخذ عليه ذلك وإنما تمزح معه ، وتدل عليه :

فتضاحكت عجباً وقالت يا فتى
لا خير فيك كأنها لم تحفل

وهنا يرد عليها رد البطل ، فهى تهتم بالأشياء التافهة وهو يهتم بأشياء أسمى من الاغتسال أو الحرص على أن يكون ممتلئاً ، يهتم بالحرب وبما تتطلبه من سلاح وإعداد خيل وجرأة قلب :

فعجبت منها حين زلت عينها
عن ماجد طلق اليدين شمردل
لا تصرميني يا عبيل وراجعي
في البصيرة نظرة المتأمل
فلرب أملح منك دلا فاعلمي
وأقر في الدنيا لعين المجتلي
وصلت حبالي بالذي أنا أهله
من ودها وأنا رخي المطول

وعنترة في هذه الأبيات كأنه يريد أن يبث الغيرة في قلبها ولكنه سرعان ما يتذكر نفسه وفروسيته فيقول :

يا عبل كم من غمرة باشرتها
بالنفس ما كادت لعمرك تنجلي
فيها لوامع لو شهدت زهاءها
لسلوت بعد تخضب وتكحل
إما تريني قد نحلت ومن يكن
غرضاً لأطراف الأسنة ينحلي
فلرب أبلج مثل بعلك بادن
ضخم على ظهر الجواد مهبل

غادرته متعفراً أوصـــالــه
والقـــوم بين مجـــرح ومجـــدل
فيهم أخو ثقة يضارب نازلا
بالمشرفى وفارس لم ينزل
ورماحنـــا تكف النجيع صدورها
وســـيوفنا تخلى الرقاب فتختلى

وإذا بحثنا فى قصة حب هذا الفارس فلن نجد أخباراً وافية عنها فى كتب الأدب والأخبار وإن تردد أنه نشأ بعد أن رفض والد عبلة حبه لابنته ، وكيف يرضى به بعلا لفتاة حرة ذات نسب عريق ؟ ويقال إنه أراد أن يخفف من قسوة هذا الرفض فطلب منه مهراً لا يطيقه محب وذلك أنه طلب ألف ناقة من عصافير الملك النعمان ، وخرج عنترة يطلبها فلاقى من الأهوال ما لم يلقه فارس ، بل إنه وقع فى الأسر وأبدى بطولات خارقة ليرضى عنه من أسره ويحرره ، وأخيراً ينجح عنترة ويأتى قبيلته ومعه النوق العصافير ، ولكن والد عبلة يماطل فى تزويجها له فيعرض ابنته على فرسان القبائل الأخرى وساداتها مشترطاً عليهم رأس عنترة مهراً لها . ويبارز عنترة المنافسين ويقهرهم فيقتل مسحل بن طراق ويصادقه بسطام فارس

بنى شيبان بعد أن أوشك عنترة على قتله ، ثم لا نعلم بعد هذا كله أنجح عنترة فى تحقيق حلمه بزواجه من عبلة أم لا .

وقد شارك عنترة فى حروب عبس مشاركة أنقذت قبيلته من مآزق كثيرة وكانت سبباً فى انتصارها ويكفى أن نذكر أنه كان أحد أبطال حرب داحس والغبراء . فقد حدث أن غزت بنو عبس بنى تميم وعليهم قيس بن زهير أحد أبطال العرب ، فانهزمت بنو عبس وطلبتهم بنو تميم ، فوقف لهم عنترة ، ولحقتهم كبكبة من الخيل ، فحامى عنترة عن الناس فلم يصب مدبر ، فساء قيس بن زهير ما أظهره عنترة من بطولة فى حماية قومه فقال حين رجع من المعركة : والله ما حمى الناس إلا ابن السوداء . فقال عنترة يهجو قيس بن زهير وكان أكولا ويفتخر ببطولته فى المعركة :

بكرت تخوفنى الحتوف كأننى
أصبحت عن عرض الحتوف بمعزل

فأجبتها إن المنية منهل
لا بد أن أسقى بكأس المنهل

ثم يقول يرد على قول قيس إنه ابن السوداء :

إنى امرؤ من خير عبس منصباً
شطرى وأحمى سائرى بالمنصل
وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت
ألفيت خيراً من معم مخول
والخيل تعلم والفوارس أننى
فرقت جمعهم بضربة فيصل
إذ لا أبادر فى المضيق فوارسى
أو لا أوكل بالرعيل الأول
إن يلحقوا أكرر وإن يستلحموا
أشدد وإن يلفوا بضنك أنزل

ثم يقول بيته المشهور الذى أنشد للنبى صلى الله عليه وسلم فقال : « ما وصف لى أعرابى قط فأحببت أن أراه إلا عنترة » .

ولقد أبيت على الطوى وأظله
حتى أنال به كريم المأكل

وكان عنترة أحد فرسان حرب داحس والغبراء التى نشبت بين عبس وذبيان وقد أظهر فيها عنترة بطولات اشتهرت وذاعت بين القبائل فخشوا بأسه وحاولوا أن يتجنبوه فى حروبهم ؛ وقد قتل فى هذه الحرب فرساناً كثيرة منهم ضمضم أبو الحصين

المرى والحارث بن بدر ، ورغم هذا فلم يكن عنترة سفاكاً للدماء أو راغباً فى الحرب بل إنه يندم على قبول القبائل للسباق الذى تسبب فى هذه الحرب ، يقول فى قصيدة رثى بها مالك بن زهير العبسى :

فلله عينا من رأى مثل مــالك
عقيرة قــوم أن جــرى فرسان
فليتهما لم يجــريا نصف غلــوة
وليتهمــا لم يرســلا لرهــان
وليتهما ماتــا جميعــاً ببلــدة
وأخطاهمــا قيس فــلا يريــان
لقد جلبا حينــاً وحرباً عظيمة
تبيد سراة القوم من غطفــان

ويظهر أن عنترة رغم هذه الشدة وذاك البأس كان على شىء من التواضع فقد قيل له : أنت أشجع العرب وأشدها ؟ قال : لا . فسئل : فبم شاع لك هذا فى الناس ؟ قال : كنت أقدم إذا رأيت الإقدام عزماً وأحجم إذا رأيت الإحجام حزماً . ولا أدخل إلا موضعاً أرى لى منه مخرجاً . وكنت أعتمد

الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع فأثنى عليه فأقتله .

فهذا يوضح صراحته وتواضعه كما يصور حنكة الفارس الخبير بالحروب ، فليست الشجاعة تهوراً وإنما هى الإقدام فى موضع الإقدام والحذر فى موضع الحذر بل التقهقر قد يكون خطة ناجحة يلجأ إليها الشجاع لينتصر .

وقد اشتهر كثير من فرسان عبس غير عنترة فقد قال عمر بن الخطاب للشاعر الحطيئة وهو ينسب فى قبيلة عبس : كيف كنتم فى حربكم ؟ قال : كنا ألف فارس حازم . قال : وكيف يكون ذلك ؟ قال الحطيئة : كان قيس بن زهير فينا وكان حازماً فكنا لا نعصيه . وكان فارسنا عنترة فكنا نحمل إذا حمل ونحجم إذا أحجم . وكان فينا الربيع بن زياد وكان ذا رأى فكنا نستشيره ولا نخالفه . وكان فينا عروة بن الورد فكنا نأتم بشعره ، فكنا كما وصفت لك . فقال عمر : صدقت .

وقد مات عنترة مقتولا كما جاء فى أكثر الروايات وكان ذلك أوائل القرن السابع الميلادى ، وربما كان قبل البعثة بسنين معدودة فقد عاصر الحطيئة الشاعر المخضرم كما عاصر

عمرو بن معد يكرب الذى كان يخشى منازلته . وكان عنترة مسناً حينما أغار على بنى نبهان أو بنى طىء فرموه بسهم فأصابوا منه مقتلا ، وكانت نهاية فارس بطل عاش فى الحرب ومات فى الحرب .

من أخبار الفرسان

ربيعة بن مكدم :

واحد من فرسان بنى كنانة ، اعترف له فرسان الجاهلية بالفضل والإقدام رغم أنه مات صغير السن . عاصر عنترة العبسى ، والسليك بن السلكة وعامر بن الطفيل ، وقد خاف بأسه عمرو بن معد يكرب وعندما نازله أوشك ربيعة أن يقتله . أطلق عليه الرواة حامى الظعينة وهى المرأة التى تحمل فى هودجها ، وكان العرب يفتخرون بحماية الظعائن والذود عن النساء ، وتدور بطولة ربيعة حول حماية النساء والدفاع عنهن فقد حماهن من دريد بن الصمة حين خرج دريد يريد الغارة على بنى كنانة فلما انتهى إلى وادى الأخرم بالقرب من ديار القوم ظهر له من جانب الوادى شخص ومعه ظعينة فقال لفارس من أصحابه : سر إليه وصح به : خل الظعينة وانج بنفسك . وكان ربيعة إذ ذاك ما زال غلاماً فناداه الفارس فلم يجبه ، فألح عليه الفارس أن ينجو بنفسه ويترك الظعينة

فرفض ربيعة مستكبراً وقال للظعينة :

سيرى على رسلك سير الآمن
سير رداح ذات جأش ساكن
إن انثنائى دون قرنى شائنى
أبلى بلائى ، فاخبرى وعاينى

ثم حمل على الفارس فصرعه وأخذ فرسه فدفعه إلى الظعينة ، فلما استبطأ دريد صاحبه بعث فارساً آخر يكشف له الخبر فوجد رفيقه صريعاً ورأى الفتى يقود الراحلة فصاح به فتصامم عنه ، فاقتحمه بفرسه ، فنازله ربيعة وصرعه وهو ينشد :

خل سبيل الحرة المنيعة إنك لاق دونها ربيعة
فى كفه خطية مطيعة أو لا فخذها طعنة سريعة
فالطعن منى فى الوغى شريعة

فلما أبطأ الفارس على دريد بعث ثالثاً لينظر ما صنع الفارسان الآخران ، فانتهى إليهما فرآهما صريعين ، ونظر فرأى الفتى يقود ظعينته ويجر رمحه فقال له الفارس : خل عن الظعينة . فقال لها ربيعة « اقصدى قصد البيوت » ثم رجع إلى الفارس وقال له :

ماذا تريد من شتيم عابس ألم تر الفارس بعد الفارس
أرداهما عامل رمــح يابس

ثم طعنه فصرعه فانكسر رمحه . واستبطأ دريد أصحابه فظن أنهم قد أخذوا الظعينة وقتلوا الرجل فلحق بهم فوجد ربيعة لا رمح معه وقد دنا من الحى ووجد أصحابه قد قتلوا فقال له دريد : أيها الفارس ، إن مثلك لا يقتل وإن الخيل ثائرة بأصحابها ولا أرى معك رمحاً وأراك حديث السن فدونك هذا الرمح ، فإنى راجع إلى أصحابى فمثبط عنك . ثم أتى دريد أصحابه وقال لهم : إن فارس الظعينة قد حماها وقتل فوارسكم وانتزع رمحى ولا طمع لكم فيه ، فانصرف القوم ودريد ينشد :

ما إن رأيت ولا سمعت بمثلــه
حامى الظعينة فارساً لم يقتــل
أردى فوارس لم يكونوا نهــزة
ثم استمــر كأنه لم يفعــل
متهلل تبــدو أسرة وجهــه
مثل الحسام جلته أيدى الصيقــل
يزجى ظعينتــة ويسحب رمحــه
متوجهــاً يمناه نحــو المنــزل

وترى الفوارس من مخافة رمحـــه
مثل البغاث خشين وقـــع الأجدل
يا ليت شعرى من أبوه وأمـــه
يا صاح من يلك مثله لم يجهل

فقال ربيعه مجيباً :

إن كان ينفعك اليقين فسائـــلى
عنى الظعينة يوم وادى الأخرم

وفى هذه القصيدة يصف ما وقع له مع دريد بن الصمة وفرسانه .

وقد سأل عمر بن الخطاب عمرو بن معد يكرب : من أشجع من رأيت ! قال : كانت لى فرس شمقمقة طويلة سريعة الإنفاذ فركبتها فلم أكن ألقى أحداً إلا قتلته ؛ ثم مضيت فأصبحت بين رجال متعاقدة فنظرت إلى أبيات فعدلت إليها فإذا فيها جوار ثلاث كأنهن نجوم الثريا ، فبكين حين رأينى فقلت : ما يبكيكن ؟ فقلن : لما ابتلينا به منك . ومن ورائنا أخت لنا أجمل منا ، فتركتهن وسرت فى طلبها فأشرفت على مكان مرتفع ، وإذا بغلام قد جلس يخصف نعله (يرقعها) فلما

نظر إلى وثب على فرسه مبادراً ثم ركض فسبقني إلى الفتيات فوجدهن قد ارتعن فسمعته يقول لهن :

مهلا نسياتى فلا ترتعـــن
إن تمنع اليوم نساء تمنعـــن

فلما دنوت منه قال : أتطرد لى أو أطرد لك . قلت : بل اطرد لى فركض وركضت فى إثره حتى أمكنت السنان من لفتته (أسفل الكتف) فإذا هو والله ينقلب على صدر جواده فتذهب الطعنة خائبة . ثم استوى فى سرجه . فعدت إلى طرده وهو يركض أمامى حتى إذا مكنت السنان بين ناصيته إذا هو والله قائم على الأرض ومضى السنان زالجاً فى الهواء . ثم استوى على فرسه ، فطردته ثالثة حتى إذا أمكنت السنان من متنه اتكأت عليه وأنا أظن أنى قد فرغت منه فمال فى سرجه حتى خالط بدنه الأرض وذهبت الطعنة فى الهواء مرة أخرى ثم استوى على فرسه وقال : أبعد ثلاث تريد ماذا ؟! ثكلتك أمك ! فوليت وأنا مرعوب منه فلما غشيني أحسست مس الرمح فى بدنى فالتفت فإذا هو يطردنى بالرمح دون سنان . ثم كف عني واستنزلني فنزلت عن فرسى فجز ناصيتي وقال :

انطلق فإنى أنفس بك عن القتل . فكان ذلك عندى يا أمير المؤمنين أشد من الموت . ثم سألت عن الفتى فقيل ربيعة ابن مكدم فذلك أشجع من رأيت .

وقصة موت ربيعة من أروع قصص البطولة التى وصلتنا من العصر الجاهلى كان قد وقع نزاع بين نفر من بنى سليم ونفر من بنى كنانة فقتلت بنو كنانة رجلين من بنى سليم ثم أعطوا ديتهما . وكف النزاع مدة من الزمن . وفى يوم خرج نبيشة بن حبيب فى جماعة من بنى سليم غازياً ، فلقى ظعائن من بنى كنانة فى موضع يقال له الكديد . وكانت الظعائن فى حماية بعض الفرسان فيهم ربيعة بن مكدم وكان مريضاً يحمل فى محفة . فلما رأوهم قال الحارث بن مكدم أخو ربيعة : هؤلاء بنو سليم يطلبون دماءهم . فلما سمع ربيعة ذلك غالب ضعفه وامتطى جواده وقال : أنا أذهب أعلم علم القوم فآتيكم بخبرهم » وتوجه نحوهم . فقال بعض الظعن : هرب ربيعة . وقالت أم عزة بنت مكدم » : أين تنتهى نفرة الفتى . فعطف وقد سمع قول النساء وأنشد :

لقدعلمن أنى غـــير فرق
لأطعنن طعنـــة وأعتنـــق
أصبحهم صاح بمحمر الحدق
عضبـــا حساماً ، وسناناً يأتلـــق

ثم انطلق يعدو به فرسه ، فحمل عليه فارس من بنى سليم ، فاستطرد له ربيعة فى طريق الظعن وانفرد به ثم عطف عليه فشكه بالرمح فأرداه . فلحق به فارسهم نبيشة ورماه بسهم فأصابه فى عضده ، فارتد إلى الظعن حتى انتهى إلى أمه وكانت معهم فى الرحل فقال لها : اجعلى على يدى عصابة

ثم أنشد يرتجز :

شدى على العصْب أم سيـــار
قد رزئت فارســـاً كالدينـــار

فقالت أمه :

إنا بنو ثعلبـــة بن مالك مرزؤو خيـــارنا كذلك
من بين مقتول وبين هالك

وشدت أمه عليه عصابة ، فاستسقاها ماء ، فقالت :

إن شربت الماء مت فكر على القوم فإن الماء لا يفوتك : فكر راجعاً يشتد على القوم ودمه ينزف حتى كشفهم وردهم عن الظعائن . ثم رجع فقال للظعن : اسرعن إلى أدنى بيوت الحى فإنى سوف أقف دونكن لهم على العقبة فأعتمد على رمحى فإن فاضت روحى كان الرمح عمادى ، وهم لا يجرؤون ما دمت واقفاً مكانى على اللحاق بكن لأن هيبتى وقعت فى نفوسهم فالنجاء ! النجاء ! فإنى أرد بذلك وجوه القوم عنكن ساعة من النهار .

وأسرعت الظعائن فوصلت إلى الحى آمنات ، وهرب الرجال فى إثرهن وربيعة واقف إزاء أعدائه على جواده معتمداً على رمحه والدم يسيل من جروحه حتى لفظ آخر أنفاسه وبنو سليم واقفون يخافون أن يقدموا فى إثر الظعائن لا يجرؤون على الدنو منه . فلما طال منهم ذلك قال نبيشة : إنه لمائل العنق وما أظنه إلا قد مات . وأمر فارساً من فرسانه أن يرمى فرسه فرماها فمضت فخر ربيعة على وجهه . فأسرعت الفرسان وراء الظعن فلم يدركوهن وإنما أدركوا أخاه الحارث فقتلوه . ثم رجعوا إلى ربيعة فأهالوا الحجارة على جثته وأصبح ذلك

المكان قبراً له . وكان الفرسان يمرون به خاشعين يحيون حامى الظعينة حياً وميتاً ، بل أصبح مثلا أعلى للفروسية الجاهلية التى تضحى بأغلى ما تملك لتحمى المرأة من التردى فى الأسر وهو أشد عار تخاف منه القبيلة العربية .

وقد مدحه كثير من الشعراء وعيروا أهله من الفرسان الذين هربوا وخلوه وحده يقاتل فرسان بنى سليم : وهذا شاعر يعتذر حينما مر بقبره ولم يعقر ناقته تعظيماً له :

نفرت قلوصى من حجارة حرة
بنيت على طلق اليدين وهوب
لا تنفرى يا ناق منه فإنه
سباء خمر مسعر لحروب
لولا السفار وبعد خرق مهمه
لتركتها تحبو على العرقوب
فر الفوارس عن ربيعة بعدما
نجاهم من غمرة المكروب
لا يبعدن ربيعة بن مكدم
وسقى الغوادى قبره بذنوب

* * *

زيد الخيل :

فارس من طيء قبيلة الشعراء والفرسان والأجواد ، وزيد فارسها المعلم العملاق وشاعرها المجيد المقل . أضيفت الخيل إلى اسمه لشغفه بها وكثرة ما اجتمع لديه منها ، وكان لا يقتني الخيل إلا الفارس الموسر ، وقد عرفت له أفراس عدة منها : الهطال والورد والكميت ودؤول ولاحق .

وكان زيد الخيل طويلاً عملاقاً تخط رجلاه الأرض إذا ركب فرسه ، فكان منظره يروع منافسيه قبل أن يصاولوه أو ينازلوه . قدم على النبي فى وفد بنى طيئ سنة تسع للهجرة ، فلما رآه أعجب بمنظره وقال له : « ما وصف أحد فى الجاهلية فرأيته فى الإسلام إلا رأيته دون الصفة غيرك » . وقد أسلم زيد الخيل فسماه الرسول زيد الخير وأقطعه أرضاً يستغلها ؛ ثم مرض بالحمى ومات بعد فترة قصيرة .

وأخباره فى الجاهلية تشهد ببطولته وفروسيته : كان عامر ابن الطفيل أحد فرسان العرب المشهورين قد أغار على

بنى فزارة فسبى امرأة يقال لها هند، واستاق نعماً كثيرة لهم . فاتفق أن خرج زيد الخيل يومذاك إلى بنى بدر وهم بطن من فزارة يطلب نعماً لهم عندهم . فقالوا : ما كنا قط إلى نعمك أحوج منا اليوم . وأخبروه بما فعل عامر بن الطفيل بهم . فانطلق زيد فى إثره يبحث عنه ، فأدركه وهو يسوق النعم مطمئناً . ورآه عامر فأدهشه طوله وضخامته . وبرز إليه زيد وناداه : خلِّ عن الظعينة والنعم ! فسأله عامر : من أنت ؟ . قال : فزارى أنا . قال عامر : والله ما أنت من القُلح أفواهاً (أى صفر الأسنان) ويريد بهم بنى فزارة . فقال زيد : خل عنها ! قال عامر : لا أو تخبرنى من أنت . قال : أسدى . قال : لا والله ما أنت من المتكورين على ظهور الخيل . يريد بنى أسد . قال : خل سبيلها . قال : لا والله أو تخبرنى ، فاصدقنى . قال : أنا زيد الخيل . قال : صدقت ، فما تريد من قتالى ؟ فو الله لئن قتلتنى لتطلبنك بنو عامر ، ولتذهبن بنو فزارة بالذكر . واستأسر له عامر ، فجز زيد ناصيته ، وأخذ رمحه ورد هند والنعم إلى بنى بدر . ورجع عامر إلى قومه مجزوزاً ، وأخبرهم بما وقع له فغضبوا وقالوا له : «لا ترأسنا أبداً» وخرجوا عن قيادته لهم . ثم جهزوا ليغيروا على بنى طيئ

ورأسوا عليهم علقمة بن علاثة منافس عامر فى الرئاسة . فبعث عامر إلى زيد الخيل يخبرهم أنهم خرجوا لغزوهم . فجمع زيد قومه وتربص لهم فى مضيق جبلين حتى إذا أقبلوا قاتلهم وأسر منهم جماعة وهرب الباقون . وكان بين المأسورين الشاعران الحطيئة وكعب بن زهير . فمدحه الحطيئة بشعر وأعطاه كعب فرسه الكميت فخلى سبيلهما . واستبقى بقية بنى عامر فى الأسر . ولما طال أسرهم سألوه أن يقبل الفداء ويطلق سراحهم فقال لهم : الأمر إلى عامر بن الطفيل يريد بذلك أن يعيد مكانته عندهم . فرفض بنو عامر لكنهم اضطروا أخيراً إلى أن يهبهم لعامر الذى أطلق سراحهم واستعاد مكانته لديهم .

وكان زيد الخيل شديد العصبية ليمنيته كثير الغزوات للعدنانية ، وقد خص بنى أسد بأكثر غاراته وأعنفها . وكان زيد لا يغفل عن حقه فى الرئاسة وأخذ ربع الغنيمة فى كل غزوة يغزوها ، وكانت قبيلته تخضع لشروطه لأنها تعلم أنها تعود معه ظافرة غانمة . حدث أن غزت بنو نبهان ومعهم زيد الخيل قبيلة بنى فزارة فاقتتلوا قتالاً شديداً . فانهزمت فزارة

وساقت بنو نبهان الغنائم . ولكن فزارة حشدت فرسانها واستعانت بأحياء من قيس وفيهم رجل من سليم شديد البأس يقال له عباس بن أنس كان نازلاً فى فزارة ، فأغاروا على نبهان ولم تكن الرئاسة حينئذ لزيد الخيل ، فامتنع عن القتال ووقف ينظر إلى المعركة . فثقلت الوطأة على بنى نبهان وأثخنت فيهم فزارة . فلما رأى زيد ما حل بقومه ناداهم : يا بنى نبهان أ أحمل ولى المرباع . قالوا : نعم ! فشد على بنى سليم فهزمهم وأخذ أم الأسود امرأة عباس بن أنس ، ثم شد على بنى فزارة ومن معهم فهزمهم وفى ذلك يقول :

ألا ودعت جيرانهــا أم أســودا
وضنت على ذى حاجة أن يزودا
وسائل بنى نبهــان عنا وعندهم
بلاء كحد السيف إذ قطع اليدا

وكان زيد الخيل لا يحب لقومه أن يتحاربوا فيفنى بعضهم البعض وكان ينصح أبناءه أن لا يدخلوا تلك الحرب التى تفتك بين بطون القبيلة الواحدة . فقد قال لابنيه مكنف وحريث يوم اليحاميم عندما تنازعت بطون قبيلته : أى ابنى ، ابقيا على قوميكما ، فإن اليوم يوم التفانى ، فإن يكن هؤلاء أعماماً

فهؤلاء أخوال . واضطر يوماً إلى الابتعاد عن قومه حين يئس من الإصلاح بينهم ونزل على بنى تميم ، فلما خرجت بنو تميم لغزو البكريين بقيادة قيس بن عاصم خرج معهم ، واقتتلت القبائل فترة وزيد الخيل واقف ينظر فلما رأى أن كفة بنى بكر قد رجحت وأوشك التميميون أن ينهزموا عز عليه أن لا ينجدها فحمل على البكريين يضرب أعناقهم ولا يتكنى بكنيته حتى لا يعرفوه فيثير عداء بين قبيلته وبينهم ، فلما انتصر بنو تميم جاء إلى قيس بن عاصم فقال له : اقسم لى يا قيس نصيبى .

قال قيس : وأى نصيب ؟ فوالله ما ولى القتال غيرى وغير أصحابى . ورفض أن يعطيه شيئاً لكى لا يظهر له فضلا عليه أو على بنى تميم فغضب زيد الخيل وخرج وهو يقول :

فلست بوقاف إذا الخيل أحجمت
ولست بكذاب كقيس بن عاصم
بل الفارس الطائى فض جموعهم
ومكة والبيت الذى عند هاشم
إذا ما دعوا عجلا عجلنا عليهم
بمأثورة تشفى صداع الجماجم

فلما عرف بنو عجل أن زيد الخيل سبب هزيمتهم — وبنو عجل بطن من بكر — أغاروا على بنى نبهان وأخذوا نعمهم انتقاماً منه . وبلغ ذلك زيد الخيل فانطلق فى فوارس من بنى نبهان فقاتل بنى عجل واستنقذ بعض ما كان بأيديهم ولكنه لم يرجع إلى منازله خجلا من أنه لم يستطع أن يسترجع كل النعم فأغار على قبيلة تيم الله من قبيلة النمر بن قاسط أقرباء البكريين فغنم وسبى ورجع إلى قومه وهو يقول :

إذا عركت عجل بنا ذنب غيرنا
عركنا بتيم الله ذنب بنى عجل

وعاش زيد الخيل مرهوب الجانب طيلة حياته ومات مسلماً بعد أن غير رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه من زيد الخيل إلى زيد الخير .

الشنفرى الصعلوك :

نمط آخر من الفرسان الصعاليك يختلف عن ذلك النمط الذى يمثله عروة بن الورد ، فإذا كان عروة يمثل الفارس الإنسان فإن الشنفرى يمثل الفارس الشيطان .

فهو أحد أغربة العرب أولئك الذين شعروا بالاضطهاد

النفسى والمادى بسبب لونهم ووضعهم الاجتماعى فى قبائلهم .

وقد اختلف فى اسمه كما اختلف فى نسبه . فهو ثابت والشنفرى لقبه لضخامة شفتيه أو أن الشنفرى اسمه وليس لقبه . وهو أزدى ونشأ فيهم ثم أغاظوه فهجرهم أو أنه ولد فى بنى سلامان أو نشأ عندهم ، ثم إن حياً من بنى فهم أغار على بنى سلامان وأسر الشنفرى وهو غلام صغير فلم يزل فيهم حتى أسرت بنو سلامان رجلا من فهم ، ففداه الفهميون بالشنفرى . وكبر فى بنى سلامان وظن أنه منهم وحدث ذات يوم أن أراد أن يقبل ابنة من ينزل عليه فلطمت وجهه . فغضب ثم أخبره الرجل أنه أزدى من الأوس .

ورغم كل هذا الاضطراب الذى ساد نسبه فإننا نستطيع أن نقول إنه فقد توافقه الاجتماعى مع قبيلته الأزدية فجاور بنى فهم تلك التى اشتهرت بلصوصها وصعاليكها ، وهناك اتصل بالصعلوك تأبط شرا ووجد فيه تلميذاً ممتازاً ووجد فيه تأبط شرا خير رفيق له فى غزواته ، وبهذا سنحت الفرصة للشنفرى لينتقم من قبيلته ، فصب عليها جام غضبه .

وحفلت حياة الشنفرى بقدرته على سفك الدماء ، فكان يقطع الطريق على المسافرين ويغير على أموالهم ونسائهم ،

كذلك كان يغير على الأحياء ليلا فيروع ساكنيها من النساء والأطفال ويبطش بالرجال ، وبلغ من تحديه لأعدائه أنه كان يعلم سهامه قبل أن يرمى بها الرجال حتى تعرف القبائل أنه هو القاتل . وكان يأتى الرجل ويقف على مبعدة منه ويقول له : أ أطرفك ؟ ثم يرميه فيصيبه فى عينه .

وتحاملت عليه القبائل جميعاً ورغبت فى التخلص منه ، وتروى قصة جميلة تتصل بغضب القبائل عليه وانتقامها منه .

كان الشنفرى عندما ترك بنى سلامان مغاضباً قد أقسم أن يقتل مائة رجل منهم فما زال يترصدهم ويغتالهم حتى قتل تسعة وتسعين فارساً ، ولم يبق إلا فارس واحد حتى يبر بقسمه . وكمن له أسيد بن جابر السلامانى وكان من مشهورى العدائين مع نفر من قبيلته وكان الشنفرى قد قتل أخا أسيد وهو حرام ابن جابر . ومر الشنفرى بهم يريد الماء فأبصر عن بعد سواداً فرماه بسهم وكان من عادته أن لا يرى سواداً إلا رماه فأصاب السهم ذراع واحد منهم فلم يصرخ حتى لا يفطن الشنفرى إلى أمكنتهم ، فلما أمن ألقى سلاحه ونزل الماء ليشرب ، فانقض عليه أسيد ومن معه وأسروه وجاءوا به إلى بنى سلامان ، فقضت عليه القبيلة بالموت انتقاماً منه وتركوا جثته للضوارى

طريحة الفضاء . ويكمل الرواة هذه القصة فيقولون إن رجلا من بني سلامان عثر على جمجمته يوماً ملقاة في الصحراء فرفسها برجله تشفياً وازدراء فغرزت شظية من عظمها في قدمه فجرحته ، وتعفن الجرح فمات الرجل فتمت به المائه . وبهذا بر الشنفرى بقسمه في حياته وفي موته . ويظهر أن القدر نفذ له رغبته مقابل وفائه بقسمه إذ كان يخاف أن يدفن بعد موته ، فيأتي أعداؤه فيمثلوا بجثته ، ولذلك أوصى بأن يطرح في الصحراء لأصدقائه من الحيوانات المفترسة ليكون طعاماً لها فهي أبرّ به من الإنسان .

فلا تقبروني إن قبري محرم
عليكم ولكن أبشري أم عامر

ولا يستطيع متحدث عن هذا الصعلوك أن ينسى لاميته التي أطلق عليها لامية العرب . فهي من القصائد المختارة في تاريخ الشعر العربي لأنها تمثل الفطرة البدوية الخشنة بألفاظها، الساذجة بمعانيها ، كما تصور أنانية الشاعر ودورانه حول نفسه إلى جانب تصويرها لتمرده ورغبته في الانطلاق والتحرر من كل قيد يفرضه عليه المجتمع .

وإذا كان الشنفرى قد عاش عيشة الفاتك القاتل فإن ذلك

نتيجة لما لاقى فى مجتمعه من عنت وقسوة ، وظلم اجتماعى وفوارق طبقية ؛ وبعد كل هذا فقد عاش مقاتلا ومات مقاتلا . وتلك أمنية كل صعلوك انشق عن المجتمع رغبة فى التحرر ، وحباً فى الانطلاق ، فلا عبودية ولا قيود ولا طبقية ولا قهر ولا استبداد .

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٠

حضارة أجدادنا

احتل العرب فى كل عصر مكانة عالمية جليلة . فقد حملوا مشعل الحضارة إلى الشرق والغرب وكانت حضارتهم أصلا استمدت منه الأمم مقوماتها وأساساً شيدت عليه صرحها . وقوائم « دار المعارف » حافلة بالكتب والدراسات التى تتناول تاريخ العرب وآثارهم وفتوحاتهم وحضارتهم مما يتيح للقارئ العربى أن يقف على مفاخر أجداده وأن يقرأ صفحات ناصعة مشرفة من تاريخهم المجيد .

ومن تلك الكتب — صفحة — الثمن

* أثر العرب فى الحضارة الأوربية للأستاذ عباس محمود العقاد
* الدولة العربية الكبرى للأستاذ محمود كامل
* العرب فى صقلية للأستاذ إحسان عباس
* مقام العقل عند العرب للأستاذ قدرى حافظ طوقان
* الفنون الإسلامية ترجمة الأستاذ أحمد محمد عيسى
* بين الآثار الإسلامية فى العالم للدكتور محمد مرزوق
* تاريخ الفتح العربى فى ليبيا للأستاذ الطاهر أحمد الزاوى
* مجموعة نوابغ الفكر العربى — ثمن الكتاب ١٥ «



دار المعارف للطباعة والنشر والتوزيع

يوليو ١٩٦٠

الثمن ٥٠ مليماً
٥٠ قرشاً سورياً